

أحمد بن عامر

الدولة الحفصية

صفوان خالدة
من تاريخنا المجيد

عبد الوصف التميمي



دار الكتب الشارقة

أحمد بن عامر

عيسى يوسف الدينوري

الدولة الحفصية

صفحات خالدة
من تاريخنا المجيد



جميع الحقوق محفوظة

كلمة الناشر

يسرنا أن نقدم الى المواطنين الأعزاء هذا الكتاب « الدولة الحفصية » المتضمن صفحات ذهبية من الحضارة التونسية ، يدفعنا الى ذلك شعورنا بحاجة مجتمعنا الى الاستزادة من درس ماضيه ، واستخلاص العبر منه ، باعتبار ما بين الأجيال في الأمم الناهضة من ترابط وثيق يصل ماضيها بحاضرها ، ويكون سنداً لما تؤمله في غدها .

وقد شجعنا على نشره ما وجدناه فيه من مادة دسمة ، من شأنها أن تساعد على ازدهار النهضة الفكرية ببلادنا . ومؤلفه الأستاذ احمد بن عامر من رجال التربية الأكفاء ، الذين قضوا جل حياتهم في خدمة العلم والمعرفة ، واستقر به المطاف في ميدان الكتابة والتأليف ، فبرهن بما نشر له عن ثقافة غزيرة ، واطلاع واسع ، ومقدرة فائقة ، وأصبح غنياً عن التعريف .

ونحن نأمل أن يحقق عملنا ما نصبو اليه ، وأن تعم فائدته الجميع .

الناشر

المؤلف



الأستاذ أحمد بن عامر - ولد ببلدة سيدي عامر (سوسة)
في غرة جمادى الثانية سنة 1326 هـ. = غرة جويلية سنة 1909.

- أتم تعلمه الثانوي بمدرسة ترشيح المعلمين بتونس.

- باشر تعليم اللغتين العربية والفرنسية مدة تقارب ثلث القرن،
قضى ما يفوق ثلثها بالمعهد الثانوي للذكور بسوسة،
وتخرج على يديه نوابغ كثيرون يعتز بهم الوطن التونسي،
وأشرف على تكوين معلمين مبتدئين عديدين.

- ساهم بقسط مشكور في الميدان الاجتماعي، والنهضة
الثقافية، والحقل الوطني، والحركة النقابية.

— أحرز على التقاعد «بطلب منه»، وتفرغ للكتابة والتأليف.
فكان ما نشر له من دراسات ومقالات ومؤلفات مما
يشرف تونس الخضراء في عهدها الجديد. وهو عاقد
العزم : على الهضي قدما في ذلك السبيل، معتبرا
عمله مساهمة منه في نشر الوعي -وعلى
القيام بدوره على الوجه الاكمل، في هذه المعركة
التي تشنها الأمة جمعاء ضد التخلف، لمواكبــــة
التطور ، والالتحاق بركب الحضارة، وتحقيق فرحة الحياة.

الامداء

أهدي هذا السفر المتواضع
- عنوانا على وفائي وإخلاصي -
الى زوجتي الطاهرة أم أبنائي الرحومة

الزهرة عطية

التي كانت لي خير مؤنس وأخلص صديق
في حياتي، وساعدتني على التأليف
بما وفرته لي من الراحة والهدوء، وبما
لقيته منها من التشجيع. تغمدتها
الله برحمته، وأسكنها فراديس جنته.

المؤلف

مقدمة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يخفى أن معرفة المواطن لتاريخ وطنه التونسي
تزيده حبا فيه، وتثبت أصالته به، وتبعث فيه الاعتزاز
بأمجاده، وتقوي صلته بكيانه المعبر، وتراثه العثمخي،
وتدعونه من استخلاص العبر.

وسعيا وراء تحقيق تلك الغايات السامية قامت
بتأليف هذا السفر المتواضع الذي أسميته (الدولة الحفصية).
وذلك نتيجة بحث وتنقيب في عدة مصادر، اقتضت على
إثبات أسماء أهمها في نهاية الكتاب، لتكون مرجعا
لمن أراد التوسع والزيادة.

وقد ضمته تاريخ عهد من عهود بلادنا الزاهرة،
هو عهد (الدولة الحفصية) التي دامت 347 سنة
هجرية. كانت البلاد أثناءها في أزكى وأبهى أيامها،

على الرغم مما جدّ بها من ثورات واضطرابات، وتناحر ونكبات، لولاها لبلغت أوج المجد والعظمة.

والجدير بالذكر أن عدد عهود تاريخ بلادنا ستة عشر تتجلى من استعراضها وضعية عهد تلك الدولة . وهي :

- 1 - العهد البربري 3 000 - 814 ق. م.
- 2 - العهد القرطاجني 814 - 146 ق. م.
- 3 - العهد الروماني 146 ق. م. - 439 م.
- 4 - العهد الفندالي 439 - 534 م.
- 5 - العهد الرومي 534 - 647 م. = 27 هـ.
- 6 - عهد الولاة العرب 27 - 184 هـ. = 647 - 800 م.
- 7 - عهد الدولة الأغلبية 184 - 296 هـ. = 800 - 909 م.
- 8 - عهد الدولة الفاطمية 296 - 362 هـ. = 909 - 972 م.
- 9 - عهد الدولة الصنهاجية 362 - 555 هـ. = 972 - 1160 م.
- 10 - العهد الموحيدي 555 - 634 هـ. = 1160 - 1237 م.
- 11 - الدولة الحفصية 634 - 981 هـ. = 1237 - 1573 م.
- 12 - العهد العثماني 981 - 1117 هـ. = 1573 - 1705 م.
- 13 - عهد ما قبل الحماية 1117 - 1298 هـ. = 1705 - 1881 م.
- 14 - عهد الحماية الفرنسية 1298 - 1373 هـ. = 1881 - 1954 م.
- 15 - عهد الاستقلال 1373 - 1376 هـ. = 1954 - 1957 م.
- 16 - العهد الجمهوري 1376 - هـ. = 1957 - ... م.

هذا وقد حرصت على أن أستعرض في كتابي هذا

حياة المجتمع الترنسي، خلال عهد (الدولة الحفصية) استعراضا شاملا ومجملًا : لنظامه السياسي، والقضائي، والعسكري، ولحياته الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية. بما في ذلك من انحطاط وارتقاء، وضراء وسراء، وشقاء وسعادة، وحداية وسيادة - ولتاريخه - أي لصراعه قصد إثبات شخصيته، ولمساهمته في الحضارة البشرية. وتجلت مساهمته بالخصوص :

- في المنشآت العمرانية التي أحدثها بالعاصمة، وصيرتها من المدن العجيبة، ومطمح الآمال، ومحط الرحال.
- وفي ترميمه للحنايا القديمة، وإشادته تكملة لها، أمكن بواسطتها إيصال ماء زغوان إلى العاصمة، بعد أن كانت محرومة منه.

- وفي استقباله لبعض مهاجري الأندلس، وإكرامهم، وتمكينهم من الاستقرار. فاستفادت البلاد من خبرتهم، وساهموا في عمرانها وترقيتها.

- وفي المعاهد العلمية التي أسسها، ففتحت سبل التقدم، وأثارت أشعتها البلاد، ومكنتها من أن تحتفظ بعروبيتها وإسلامها.

- وفي التأليف الذي أبرزه أحد أبنائه في التاريخ والاجتماع فأثار السبل، وأثاله الذكر الحميد، وكسا سمعته مجدا مؤثلا.

— وفي المؤلفات التاريخية والدينية التي تركها بعض أبنائه، فأصبحت عمدة، واستمرت الاستفادة بها الى يومنا هذا، وأكسبته شهرة كبيرة.

— وفي قسمة مياه عيون جهة الجريد على غابة نخيلها التي تولاها أحد أبنائها بكيفية أعجزت مهندسي فرنسا عن استبدالها.

— وفي العمل على ترقية مستوى الحياة العائلية، وعلى النهوض بالمرأة، فأصبح حظها موفورا، وأكسبها باعا مديدا في الأدب.

— وفي تأسيسه لأول مستشفى بالعاصمة، وفي العمل على تنظيم الطب وترقيته، مما أدى بملوك فرنسا لاستدعاء أمين أطبائه ليعالج مرضاهم.

— وفي إحداثه في الميدان التجاري: لشركات منظمة لتبديل العملة وتسعيرها — ولمؤسسات للقروض، وتوزيع الأرباح، وضمان البضائع.

— وفي تشييده للقنطرة التي تربط جزيرة جربه باليابسة من جهة جرجيس، والتي لا تزال قائمة الذات رغم مرور السنين.

— وفي صراعه المتمثل في أنواع المقاومة التي جابه بها الاسبان والأمير الذي استنجد بهم، وفي تحمله، برباطة جأش وشجاعة مثالية، صنوف العسف، والاضطهاد والجبروت

التي سلطت عليه ، وقابلها بردود فعل مشرفة. إثباتا لشخصيته.
في ذلك كله. تجلت بالخصوص مساهمة المجتمع
التونسي في الحضارة العامة - ومن أجل نشرها في مختلف
أوساطه سجلتها في هذا السفر المتواضع.

ومن خلال ذلك يتسنى للمواطنين - وللشباب منهم
بالخصوص - أن يستمدوا ما يدفع بهم إلى السير بخطى
أوسع ، للخروج من التخلف نحو المجدد ، ورفع المستوى.
والالتحاق بركب الحضارة.

ذلك ما قصدت تحقيقه ، عندما صح مني العزم على
القيام بهذا التأليف - مؤملا أن أكون قد أدركت غايتي.
بعدها بذلت في سبيلها أقصى ما في استطاعتي.
مكتفيا بكوني قمت بواجب نحو وطني ، وأرضيت ضميري.
لأن ذلك هو شعاري في أعمالي ومناي في الحياة.

سوسة في 14 ربيع الاول سنة 1392
وفي 28 أفريل سنة 1972

المؤلف

الفصل - 1 -



الدولة الحفصية

634 - 981 هـ . = 1237 - 1573 م .

الدولة الحفصية هي الدولة الاسلامية الرابعة بالبلاد التونسية وقد دامت 347 سنة هجرية.

- مؤسسها هو « أبو زكرياء يحيى الحفصي » بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، نسبة إلى هنتاة إحدى فروع قبيلة المصامدة البربرية التي كانت تقيم بالمغرب الأقصى.

وقد تمكن من تأسيسها عندما كان واليا من قبل «الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى» التي كانت البلاد التونسية تابعة لها منذ أن أصبحت في حوزتها سنة 555 هـ. = 1160 م.، إذ اغتنم فرصة تراجع أمر خلفاء تلك الدولة وضعفهم، واختلال سلطتهم، فأعلن الاستقلال، وتأسس «الدولة الحفصية» فلم يلق أية معارضة من أحد، وانقادت إليه البلاد طائعة - وذلك سنة 634 هـ. = 1237 م..

وجده « أبو حفص » كان من الذين ساعدوا عبد المؤمن بن علي الكومي. المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية، وأحرز بفضل تلك المساعدة على منزلة رفيعة في تلك الدولة.

والله « أبو محمد عبد الواحد » كان وزيرا للخليفة الموحيدي الناصر محمد يعقوب الذي عينه واليا بتونس. وإثر وفاته باشر الولاية على التوالي : أبو زيد عبد الرحمان. ثم أبو العلاء إدريس بن يوسف. ثم عبد الرحمان بن إدريس. ثم أبو محمد عبد الله عبود، ثم (أبو زكرياء يحيى الحفصي) الذي عين سنة 625 هـ. = 1228 م. والذي يعتبر (واليا) في المدة التي تمتد بين تاريخ تعيينه وبين تاريخ إعلانه الاستقلال و (أميرا) بعد ذلك. أي منذ تأسيسه الدولة الحفصية. ومن الغلط الفادح اتخاذ تاريخ تعيينه واليا بداية للدولة الحفصية.

وقد بلغ عدد أمراء الدولة الحفصية 24 أميرا - وهم :

- 1 - أبو زكرياء يحيى 634 - 647 هـ. = 1237 - 1249 م.
- 2 - محمد المستنصر بالله 647 - 675 هـ. = 1249 - 1277 م.
- 3 - أبو زكرياء يحيى الوائلي 675 - 678 هـ. = 1277 - 1279 م.
- 4 - أبو إسحاق إبراهيم الأول 678 - 683 هـ. = 1279 - 1284 م.
- 5 - أبو حفص عمر الأول 683 - 694 هـ. = 1284 - 1295 م.
- 6 - أبو عبد الله محمد أبو عبيدة 694 - 709 هـ. = 1295 - 1309 م.
- 7 - أبو بكر بن يحيى 709 - 709 هـ. = 1309 - 1309 م.

- 8 - أبو البقاء خالد الاول 709 - 711 هـ = 1309 - 1311 م.
- 9 - أبو يحيى زكرياء الاول 711 - 717 هـ = 1311 - 1317 م.
- 10 - محمد أبو ضربة 717 - 718 هـ = 1317 - 1318 م.
- 11 - أبو بكر بن أبي زكرياء 718 - 747 هـ = 1318 - 1346 م.
- 12 - أبو حفص عمر الثاني 747 - 748 هـ = 1346 - 1347 م.
- 13 - أبو العباس الفضل 750 - 751 هـ = 1350 - 1350 م.
- 14 - أبو اسحاق ابراهيم الثاني 751 - 770 هـ = 1350 - 1369 م.
- 15 - أبو البقاء خالد الثاني 770 - 772 هـ = 1369 - 1370 م.
- 16 - أبو العباس أحمد الاول 772 - 796 هـ = 1370 - 1394 م.
- 17 - أبو فارس عبد العزيز 796 - 837 هـ = 1394 - 1433 م.
- 18 - محمد المنتصر 837 - 839 هـ = 1433 - 1435 م.
- 19 - أبو عمرو عثمان 839 - 893 هـ = 1435 - 1488 م.
- 20 - أبو يحيى زكرياء الثاني 893 - 899 هـ = 1488 - 1493 م.
- 21 - أبو عبد الله محمد 899 - 932 هـ = 1493 - 1526 م.
- 22 - الحسن بن محمد 932 - 950 هـ = 1526 - 1543 م.
- 23 - أبو العباس أحمد الثاني 950 - 977 هـ = 1543 - 1569 م.
- 24 - محمد بن الحسن 977 - 981 هـ = 1569 - 1573 م.

ملاحظة (1) لم نعتبر من الامراء « ابا العباس احمد » الذي ثار على الامير 12 واغتصب منه الامارة ، افقتله بعد اسبوع واسترجعها منه .

(2) لم نعتبر من الامراء « ابا الحسن المريني » الذي احتل العاصمة وبلغت مدته فيها 30 شهرا ونصفا . ولذلك يوجد فراغ بين مدة الاميرين 12 و 13 - .

الفصل - 2 -



النظام السياسي

كانت منطقة نفوذ الدولة الحفصية تشمل : البلاد التونسية، وطرابلس، ومقاطعة قسنطينة من بلاد الجزائر. وكانت منقسمة الى مناطق على رأس كل منها وال - أو عامل يعتمدون على مشايخ البلدان، ورؤساء القبائل. واعتاد الامراء تعيين الولاة والعمال من بين أقاربهم.

وفي عهد هذه الدولة كانت البلاد مستقلة مدة الـ 308 سنة الأولى، ومحمية إسبانية مدة الـ 39 سنة الأخيرة.

وقد لُقب ملوكها بلقب « أمير » ثم بلقب « أمير المؤمنين » ، وبلقب « السلطان ». وكانت أسماؤهم تذكر في الخطب الجمعية، وتنقش على السكة. وكان نظام الحكم وراثيا، والأمير رئيسا للدولة. والحاكم المطلق، يجمع بين الساطيتين الزمنية والروحية. ويعتمد على مجلس استشاري يلقب رئيسه بـ(الشيخ الأعظم)، ويتركب من عشرة

مشائخ يعينهم الأمير، ويعتمدون بدورهم على مشورة مجلس آخر يضم خمسين شيخاً معينين من طرف الأمير أيضاً.

— وأعضاء الأمير على تسيير شؤون الدولة :

— حاجب يربط الصلة بينه وبين الرعية.

— وثلاثة وزراء يشرفون على دواوين حكومية منظمة يرجع بالنظر إليها : القضاء، والجيش، والمالية، ويعمل بها متوظفون عديدون، ومأمورون كثيرون، من العناصر المقتدرة.

— ومأمور يسهر على نظام الأمن، ويراقب الأسواق.

— ومدير للجمرك أو الديوانة يشرف على (ديوان البحر) الذي ترجع إليه بالنظر « مراكز الجمرك » الموجودة بالهواني وأبواب العاصمة وبقية المدن، ويتولى رؤساؤها (1) استخلاص أداء المكس على العائدات والواردات .

وكان مقر الحكم بالعاصمة « القصة » التي كانت موجودة بجوار المعهد الصادقي الحالي، ووقع تهديمها في عهدنا الحاضر. وكانت تشتمل على دواوين الحكومة، ومقر انعقاد المجالس، ومساكن الأمراء، وآل بيتهم، وبعض رجال حاشيتهم، وقسم من الجند الماكي.

(1) يعرف الواحد منهم باسم « أمير الباب » .

وبالإضافة الى تلك المساكن، كان الامراء يملكون قصورا
مشملة على بساتين بضواحي العاصمة - ومنها : قصر بباردو،
وبرج السلاسل بالدرسى، وقصر رأس الطابية، وقصر أبي فهر
قرب أريانة الذي كان مشتملا على جاية تشبه بحيرة تجري
فيها القوارب، وأنشأه الأمير محمد المستنصر بالله.

- ولم يكن للبلاد « علم وطني » لأنه من الأمور
المستحدثة وإنما كانت لها « صناجق » مختلفة الألوان
والأشكال، حل محلها « العلم الوطني الحالي » منذ أسسه
سنة 1247 هـ = 1831 م.، خلال عهد ما قبل الحماية، الباي
الثامن للدولة الحسينية « حسين الثاني » (1).

- وكان للامراء (طغراء) - أي شعار للملك والدولة -
وهي علامة تكتب في أعلى المراسلات الرسمية كرمز
للسلطة الصادرة عنها. وقد عفت رسومها بتجدد نار الفتن
في ربوع البلاد. وممن باشر كتابتها المؤرخ المشهور
« ابن خلدون » (2).

- وكانت السكة عندهم مربعة الشكل ، بعد أن ضلت
خلال العهود السابقة ذات شكل مستدير. وتكون مما يلي :

(1) ص . 58 - تاريخ معالم التوحيد
(2) ص . 251 تونس عبر التاريخ - و ص . 136 تاريخ معالم
التوحيد

— الدينار — وهو من الذهب، ويزن أربع غرامات
واثنين وسبعين مليغراما.

— والدرهم — وهو من الفضة، ويزن غراما واحدا ونصفا.
— والهندوس — وهو من النحاس. وقد عوّض « الفيلس »
الذي ضل مستعملا خلال العهد السابقة.

وكانت الكتابة على السكة بالخط الكوفي المزخرف
أو بالخط الأندلسي . أما نصها، فإنه قريب المعنى ولا تكاد
تختلف عباراته الا قليلا .

من ذلك « الدينار » في مدة مؤسس الدولة. الأمير
أبي زكرياء يحيى — فقد كان مكتوبا :

— على وجه، في الوسط : الواحد الله، محمد رسول الله،
المهدي خليفة الله — وفي الدائرة : بسم الله الرحمن الرحيم،
صلى الله على سيدنا محمد، وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو
الرحمن الرحيم.

— وعلى الوجه الثاني، في الوسط : أبو محمد عبد المؤمن
بن علي أمير المؤمنين، الحمد لله رب العالمين — وفي
الدائرة : الأمير الأجل أبو زكرياء يحيى بن أبي محمد
ابن أبي حفص.

أما الكتابة في « الدرهم » فكانت :
— في الوجه : لا إله إلا الله، الأمر كله لله، لا قوة إلا بالله.

— وفي القفا : الله ربنا، محمد رسولنا، المهدي إمامنا.

وكان الدينار يتجزأ إلى : نصف دينار، وربع دينار،
وثلث دينار. ومنذ أيام « محمد المستنصر بالله » عُوْض في
كتابة الدينار، لقب الأمير بلقب « أمير المؤمنين ». ومنذ
أيام « أبي عمرو عثمان » صار الدرهم يعرف باسم « الناصري »
جمع نواصر، ويتجزأ إلى « خُمُسي » وهو خمسة أسداس،
وإلى « خروبة » وهي أربعة أسداس، وإلى « نصف ناصري »
وهو ثلاثة أسداس، وإلى « قفْضي » وهو سدس الناصري.

— وبجانب السكة الحفصية، راجت سكة الاسبان في
مدة « الحداية الاسبانية » ومنها :

— اللوكة، وهي تعادل الدينار:

— والكرونة، وهي تساوي الناصري.(1)

(1) : لمبحث السكة مصدران وهما :

(1) تونس عبر التاريخ — ص . 218

(2) ورقات — 1 — ص . 455



جامع القسبة بتونس

الفصل - 3 -



العاصمة

بقيت مدينة تونس عاصمة للبلاد. إذ قد اتخذت في العهد الموحدى، ووقع الاختيار عليها: لأهميتها التاريخية، ولحسن موقعها، ولما بلغته من الشأن في مدة أمراء بني خراسان الذين حكموها في أواخر عهد الدولة الصنهاجية.

— وهي قرية بربرية قديمة، مشيدة فوق سفح جبل عرف فيما بعد بجبل أم عمرو، كانت ضئيلة في العهد القرطاجنى، ووقع ذكرها في تاريخ الحروب البونيقية، إذ اتخذت أحيانا مركز اقامة للجند. وأثبت اسمها في كتاب (المسالك والدمالك) في العهد الرومانى. وصارت مدينة أسقفية في عهدي الفندال والروم أو البيزنطيين.

— وفي عهد الولاة العرب، وجد الخراب مستوليا عليها. فأحصى عمرانها الوالى (حسان بن النعمان) إثر استيلائه على مدينة قرطاجنة، إذ قد اتخذها معقلا، وخرق للبحر مجرى في وسط البحيرة المتصلة بها فأصبحت مرفأ على البحر

الأبيض المتوسط. وأنشأ بها دار صناعة لتكوين أسطول بحري :
يحمي البلاد التونسية. ويخضع شوكة القوات الرومية— أي
البيزنطية التي كانت تهددها. وشُيِّد بها في مدة الوالي
(عبد الله بن الحبحاب) سنة 114هـ. = 732 م. جامع الزيتونة،
على أنقاض معبد وثني خرب. ولم تلبث أن اتسعت وكثر
عمرانها.

— وفي عهد الدولة الأغلبية مصرت، إذ ازدادت أهميتها
واتخذها بعض الأمراء مقراً، وأصبحت قاعدة حربية،
وتكاثر بها الجند، وتعددت ثوراتهم، وكذاك المرابطون
لحراسة الثغور بالرباطات الكثيرة التي اشتهر من بينها :
رباط الجراح بالمرسى، ورباط جبل المنار.

وفي القرن الخامس الهجري — العاشر الميلادي، زاردا
« أبو عبيد الله البكري » وأطنب في وصفها في كتابه
(المسالك والممالك) وذكر أنها :

« كانت مصراً عظيماً، يحيط بها سور له عدة أبواب.
ولها أسواقها، وحماماتها، وخاناتها. وبها حركة علمية
عظيمة. وحولها نفاق من البساتين الريانة ».

وعندما ضعفت سلطة الدولة الصنهاجية، وتداعى أمرها،
وضعف سلطان أمرائها، وأصبحت البلاد فريسة بين أيدي
الأعراب والنرمان، صارت تونس إمارة لبني خراسان.

فعظم بهم شأنها، واتسع عمرانها، ووقع تجميلها، وأنشئت بها القصور والمساجد والأسواق والحمامات والخانات. وازدهرت أسواقها حتى صارت مدينة تجارية، ومحط رحال تجار بلدان البحر الأبيض المتوسط.

وفي العهد الموحدى، جعل منها عاصمة جديدة باسمها. إذ ازدادت منشآتها، وعمرت أسواقها بالتجار والصناع.

وفي العهد الذي نؤرخه، استمرت على زهرتها وجلالها. وأنشئ بها رمضان جديدان، خارج سورها القديم، عند باب الجزيرة وباب السويقة. وأقيم سور جديد خارجي يحيط بالربضين، ويجعلهما بين سورين. وبنيت في كل من السورين أبواب عظيمة أحدهما: الباب الجديد، وباب البحر اللذان لا يزالان قائمين الى اليوم، وباب المنارة الذي وقع تهدمه في عهدنا الحاضر لتوسيع الطريق. ومكان هذا الباب مواجه للمقر الحالي لوزارة الدفاع الوضعي.

وقد تجمعت دكاكين بعض الحرف عند هذه الابواب فالصباغون داخل باب الجزيرة. والحدادون عند باب الجديد. والسراجون عند باب المنارة.

وكانت تجاور باب البحر عدة فنادق يتوزعها التجار النصارى. فلما ضاقت بهم هذه البقعة، بادروا الى بناء ربض خارج ذلك الباب كان الصورة الاولى للحي الأروبي أو المدينة الحديثة، وامتاز برحبات واسعة يبيع الناس فيها ويشترون.

وبالإضافة الى ما سبق ذكره، فقد ازدادت منشآت المدينة، وامتألت ضواحيها بالقصور والمنازه. ومن أجل ذلك كله أطنب الكتاب في وصف اعجابهم بها، وأفاض الشعراء في الاشادة بما بلغته من الحضارة والرفاهية والعظمة.

— وقد تضمن وصفها خلال العهد الحفصي. نص^١ منقول عن « شهاب الدين العمري » جاء فيه ما يلي : (١).

« وبتونس ثلاث مدارس : الشماعية — والمعرضية (خربت) — والتوفيق. وبها الحمامات، والاسواق الجليلة. ويُعمل بها القماش الافريقي وهو ثياب رفيع من القطن والكتان معا، ومن الكتان وحده. وثيابها أمتع من النصافي البغدادي وأحسن، وهو من أجل^٢ كساوي المغرب. وللأمير بستانان : أحدهما ملاصق لربض البلد اسمه « رأس الطابية » والاخر بعيد عن البساتين اسمه « أبو فهر » بينه وبين البلد ثلاثة أميال. والماء مساق اليها من ساقية زغوان (جبل بعده يوم عن تونس ويدخل منه فرع).

وليس لاهل تونس شرب الا من الابار، أحدها بشر ضيان. وبالبيوت صهاريج مجمع مياه الأمطار، لغسل القماش وغير ذلك .

(1) الكتاب المدرسي في التاريخ التونسي — ص . 210 — .

— وهناك نص منقول من رحلة (العبدري) الذي زارها سنة 688 هـ = 1289 م، في عهد الأمير الخامس « أبي حفص عمر الاول » نقتطف منه ما يلي (2) :

« مدينة تونس مطمح الامال — ومصب كل برق ومحط الرحال — من الغرب والشرق — وملقى الركاب والفلك — وناخلة فضائل البرّين في سلك.

فان شئت أصحرت في موكب، وان شئت أبحرت في مركب، كأنها ملك والارباض لها إكليل، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليّل.

وهذه المدينة — كلأها الله — من المدن العجيبة الغريبة. وهي في غاية الاتساع ونهاية الاتقان. والرخام كثير بها. وأكثر أبواب ديارها معمول منه عوائد وعتبا.

وجُلّ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل. ولها، أبواب عديدة، وعند كل باب منها ريفس متسع على قدر البلد المستقل.

(1) خلاصة تاريخ تونس — ص . 113 . .



باب المنارة

الفصل - 4 -



القضاء

- في هذا العهد، كان القضاء يقع حسب المذهب المالكي الذي أقره الامراء إقرارا نهائيا، لان أحكامه لا تتعارض مع تعاليم الموحدين التي استمسكوا بها، ولم ينفرها السكان المسلمون.

- وكانت الطريقة المتبعة أن القاضي لا يبقى في خطة القضاء بجهة أكثر من ثلاث سنين، ثم ينتقل لغيرها الى أن يتعين لقضاء العاصمة، ثم للفتوى والشورى (1).

- وكان الحكم بين الناس في مختلف الجهات يتولاها قضاة. وكلما أشكل عليهم أمرٌ بعثوا الى شيوخ الافتاء يسألونهم. وكان للجيش قاض خاص به.

- أما العاصمة فكان بها : قاضي الأنكحة - وقاضي

(1) تاريخ ابن ابي الضياف - ج . - 1 - ص . 187 .

المعاملات - وقاضي الأهلة - وشيوخ إفتاء . وجميعهم يرجعون بالنظر الى قاضي الجماعة - أي قاضي القضاة - الذي كان يتمتع بنفوذ واسع . ويتصرف في الأحكام كما يشاء ، ويتولى تنفيذه .

وكان ينعقد بالعاصمة كل يوم خميس مجلس ، تحت أشرف الأمير ، ويحضره : القضاة - وشيوخ الإفتاء - والعلماء ، ويحكم في النوازل المعضلة .

وكان الأمراء يعظّمون الشرع ويمثلون لأحكامه . إذ يحترمون القضاة ، ولا يتدخلون في شؤونهم . ويتركون للقضاة حريتهم . ويحترمون فتاوي شيوخ الإفتاء .

وبذلك عظام شأن القضاة ، وانتظم أمرهم ، وقوي جانب القضاة ، فكانوا لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، وكان القول الفصل لما يحكون به - (المؤنس ص 292) .

من ذلك أن (محمدا أبا ضربة) - ولي عهد الأمير الحفصي التاسع « أبي يحيى زكرياء » اتهم بجريمة قتل عمدا فمكّنه أبوه لقاضي الجماعة « أبي اسحاق إبراهيم بن عبد الرفيّع » للقصاص فحكم عليه بالموت إذ اعترف بالقتل وثبتت إدانته .

ولما عفا عنه أولياء القتل - أي أسقطوا عنه الدعوى ، أبدل قاضي الجماعة الحكم - حسب المذهب المالكي - بالضرب مائة ، وبالسجن مدة عام .

ومن ذلك أيضا، أن أحد الأمراء لزمته كفارة عن
تعمده الإفطار يوما من شهر رمضان. فاه تفتى، فأشار عليه
بعض العلماء بأن يكفر عن ذلك بعق مملوك مسلم سالم من
العيوب. وهو أمر بسيط بالنسبة للأمير. وأفتاه شيوخ إفتاء بأن
يكفر عن ذلك بعوم شهرين متتابعين، باعتبار أن المال
الذي بيده ليس له، وأنه للمسلمين، ليس له فيه إلا التصرف
بما تقتضيه المصلحة، وليس له أن يعتق منه. فعزل الأمير
بفتوى شيوخ الإفتاء وتجشم مشقة صيام شهرين متتابعين.

والجدير بالذكر، أن المحكمة كانت دار القاضي
أو مكانا يختص به، وأن السجن بمعناه الحالي كان موجودا.



أثر فرع من الحنايا الحفصية

الفصل - 5 -



الجيش

كان الجيش محل عناية الأمراء . وكثيرا ما أفاضوا العطاء له . وكان متنوع العناصر ، ووافر العدد ، وعتيدا ، ضرورة أنه مكلف بالسهر على أمن الأمير ، ومنوط بعهدته السهر على أمن البلاد .

وقد اعتبر بعض المؤرخين تنوع عناصره وسيلة للحيلولة دون اتفاقها برمتها على أمر أو قيامها بانقلاب ، واتخذوا وفرة عدده دليلا على الاحتياط للطوارئ .

وكانت أسلحته عديدة . منها : السيوف ، والرماح ، والنبال ، والخناجر ، والصفائح ، والدبابيس . أما المكاحل والمدافع فلم تكن ظهرت في بداية هذا العهد ، وإنما ظهرت في المدة الأخيرة منه (1) .

(1) المؤنس - ص . 300 - .

والملاحظ، أن البلاد قد عرفت : البارود السهل الانفجار ،
الدافع للقذائف بواسطة آلات خاصة في (العهد الموحدي).
والمعركة التي وقع استعمال ذلك أثناءها : كانت بمدينة
المهدية، لاعتصام أحد الثائرين بها. وذلك سنة 602 هـ. =
1205 م.. فقد ضربت تلك المدينة بآلات لم يرها الناس قبل
ذلك. إذ كانت كل واحدة منها ترمي قذائف من الحجارة
والكور الحديدية، فتسقط وسط المدينة (1).

وكانت للجيش الحفصي فرقة يعرف أفرادها ب(أصحاب
النفسير)، ويتولون دق الطبول، والنفخ في أبواق، ويشون
وراء الصناجق الأميرية، ويصحبون الأمير إذا زار العاصمة،
أو تنقل في سفره بالمحلة.

— والجيش قسمان :

(1) جند ملكي. وهو حرس خاص بالأمير، يتركب من
فرقة للفرسان، عناصرها مسيحيون— ومن فرقة للمشاة،
تنوعت عناصرها وتغيرت : فكانت من السود، من سكان
العاصمة، ومن مهاجرين أندلسيين، ومن أتراك. وجميعهم
مأجورون.

وكانت لهم حظوة خاصة في البلاط، ويرتدون زيا

(1) ص . 446 تونس عبر التاريخ .

خاصا، ويعرفون بـ(مبيد المخزن)، ويسكنون محلات متجمعة قبالة المقر الحالي لوزارة الدفاع الوطني.

2) وجند نظامي - يتركب من مشاة وفرسان : إطاراته من الحفصيين الموحدين - وعناصره من البربر، يجندون بواسطة قبائلهم مقابل إعفائها من بعض الضرائب، أو بعنوان مساهمة مجانية في المحافظة على أمن البلاد، أو مقابل أجور معينة، أو بعنوان ولائها للدولة.

ولم يكن عدده قارا، بل تغير حسب الظروف. وكثيرا ما انخرط في سلكه متطوعون عندما يدهم البلاد خطر أجنبي. وكثيرا ما وقعت الاستعانة بالبلو والرذل عند الحاجة.

وبجانب الجيش، كان للدولة أسطول بحري قوي. ولتدكين الجيش والأسطول من السهر على أمن البلاد وسلامتها، والقيام بحمايتها، وحراسة ثغورها رمت قسبة مدينة باجة، وتم تحصين رباط المنستير. وأنشئت القصبات، والمحارس، والماعقل، والقلاع - منها : قسبة بكل من مدن سوسة، والمنستير، وصفاقس، والكاف، وكانت الواحدة في مثابة مدينة مصغرة حصينة محاطة بسور - ومنها : محارم رأس أدار - والحمامات - ورغراف.

وقد بذل الجيش جهده لتوطيد الراحة والأمن داخل البلاد، بالقضاء على معظم الثورات - سواء التي أعلنتها

الأمراء على بعضهم تنازعا على السلطة، أو التي جدت بين زعماء العروش والقبائل، ورؤساء الطوائف والجماعات.

كما تمكن الاسطول من جبر الأساطيل الأجنبية على احترام سواحل البلاد، ومن مجابهة بعضها وإرجاع أصحابها عن أعقابهم خاسرين.

وبفضل ذلك. عظام شأن الدولة، وحفظي أمراؤها الأولون - في مجدوعهم - بغز وسلطان ونفوذ لم يتسن لكثير من الملوك.

لكن كثرة الفتن والقلاقل والثورات الداخلية، التي حدثت في مدة الأمراء الأخيرين، أنهكت قوى الجيش، واعتراه بسببها الضعف والفشل، وتفككت عناصره، وانحلت عراه، وحال تفوق قوات المغيرين العديدين دون انتصاره، وتشتت شمله.

فاضطرب الأمير الثالث والعشرون « أبو العباس أحمد » لتأليف جند ملكي جديد واجه قوات « علي باشا » فهزمته، ثم انضم إليها بدون جدوى. إذ وقع الاستنجد بالاسبان ثانية فانتصروا. وإزاء ما لقيه السكان منهم من الجور والظلم والطغيان، وانتقاما منهم ومن الأمير الرابع والعشرين « محمد بن الحسن »، انضموا إلى جانب قوات « سنان باشا » فكان الانتصار حليفهم حسبما منوضحه.

الفصل - 6 -



أشهر الامراء

الأمراء الحفصيون 24 أميراً. والشهرون منهم —
بالنظر الى ما جدّ في عهدهم من الأمور الهامة — يبلغ
عدددهم عشرة — وهم :

(1) مؤسس الدولة — أبو زكرياء يحيى.

في أيامه، تضاءلت الدول التي كانت حوله — ومنها :
الدولة المرحدية بالمغرب الاقصى، التي بقيت البلاد التونسية
تابعة لها مدة 79 سنة هجرية عرفت بـ(العهد الدوحدي).

وقد قوي أمره : إذ دانت له البلاد التونسية بعد أن أنهى
قمع الثائرين — واستولى على تلمسان وبقية بلاد الجزائر.

وبفضل ذلك، بايعته : سلجماسة، وسبته، وطنجة،
ومكناسة، من بلاد المغرب الاقصى — وشاطبة، وإشبيلية،
والمرية، وغرناطة، من بلاد الأندلس.

وهكذا عظم شأن الدولة في مدته. بالإضافة الى أنه
امتاز بالعلم وحسن التدبير. واشتهر بالتقشف في لباسه
ومأكله ومركبه. وكان يحمل رجال دولته على الاقتداء
به في ذلك ولو أدى به الأمر الى تهديدهم.

من ذلك. أنه استدعى ذات يوم أحد وزرائه وقد بلغه أنه
مُسرف. فلما دخل عليه، وجده جالسا على كرسي من
خشب ويده إبرة يرقع بها ثوبه، فسلم عليه. فنظر اليه
شزرا، وأذن له بالجلوس.

ثم استدعاه للاكل معه — وذلك من طعام واحد ورغيف
غير نقي. ولما فرغا أمره بالانصراف. فخرج الوزير محتارا.
وأخبر أحد أصدقائه مستفسرا عن هدف ما حدث. فقال له :
إن الأمير يشير عليك بالتقشف. وينهاك عن الاسراف.
وإلا فالويل لك.

وفي الموضوع، أثبت ابن أبي دينار في (مؤنسه) قول
الوزير نفسه : « لما استدعيت، أدخل بي بابا بابا الى أن
انتهيت الى باب قبة الأمير. فوجدته جالسا على كرسي من
خشب ويده إبرة وهو يرقع ثوبه. فسلمت عليه، فأمرني
بالجلوس، وإذا بخادم قد أتى بمائدة مغطاة، ثم رفع الغطاء
عن المائدة، فاذا بها طعام واحد، ورغيف خبز غير نقي. فأكل
وأكلت معه. فلما فرغنا، قال لي : انصرف بسلام. فخرجت،
ووقعتُ عندي حيرة، فأخبرتُ بذلك بعض أصدقاء لي،

فقال : وما صنعت ؟ قلت : لا شيء ، إلا أنني لما دخلت عليه
 فطرني شزرا . فقال لي : دخلت عليه في ثيابك هذه ؟ قلت :
 نعم . قال لي : من هنا أتى عليك . تراه أخبرك : أن كسوته
 المرقعة ، وأكله الخشن من الطعام . فإن أنت انتهيت عن
 فعلك ، ولباسك الثياب الرفيعة ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ! » .
 واشتهر هذا الأمير أيضا بـ (وصية) جليلة كتبها الى ابنه .
 ولي عهده . وهي تدل على فضله ، ويجدر بكل مسؤول أن
 يتحلى بها حوته . ولنفاستها وطرافتها . سنسجلها ضمن
 « ملاحق » الكتاب .

واشتهر أيضا بخبريته التي أثبتتها باجارته لبنات الثائر
 « ابن غانية » الثلاث ، في قصر بالعاصمة — عرف باب
 حيه باسم « باب البنات » .

وفي مدته قدم بعض مهاجري الأندلس ، فاستقروا بتونس
 وبنزرت وغيرها . ومن بينهم : العلماء ، والكتاب ، والشعراء ،
 والمهندسون ، والأطباء ، وأصحاب الحرف والصنائع . كما
 جمعت مدته من كبار العلماء والشعراء وأهل الصلاح
 ما لم يجتمع لغيره . وجمع بعدله وسياسته أموالا لا تحصى ،
 وكتبها بلغت عدتها 36 ألف مجلد .

(2) محمد المستنصر بالله .

هو ثاني الأمراء وفي مدته تدعت أركان الدولة : بالقضاء

على كل منازع ، وبحسن التدبير والسياسة . وبذلك كانت أيامه أزهى أيام الأمراء الحفصيين ، وطار صيته في الافاف ، وبلغت شهرته القاصي والداني .

فأنته بيعة (بني مرين) مؤسسي (الدولة المرينية) التي خلقت (الدولة الموحدية) منذ سنة 668 هـ = 1269 م .، ووصلته هدية من بلاد السودان .

وجاءته بيعة الشريف العلوي أمير « أم القرى » (مكة) فاهتز لها ، وعظّم صداها إثر الاعلان عنها ، فدعي ممن أجلها بأمر المؤمنين ، وملحه أحد الشعراء بما يلي :

أهنا أمير المؤمنين يبيعتهم — جاءتك بالاقبال والاسعاد
فلقد حباك بهملك رب الورى — فأنى يشر بافتاح بلاد
وإذا أتتك « أم القرى » منقادة — فدن البرة طاعة الاولاد

ومن مآثره : أنه قام باصلاح الحنايا الأصلية — أي الغير الشاملة لفرع جوقار ، وأشاد تكملة لها بداية من مكان يسمى الان « النيهلة » واقع بين باردو وسبالة صاحب الطابع (تونس عبر التاريخ — ص : 452) — .

وبذلك تمكن من إيصال مياه عيون زغوان الى قصر رأس الطابية ، ثم الى قصر أبي فهر قرب أريانة ، ثم الى صهريج داخل باب اللواء — أي باب سيدي عبد الله بتونس . ومن هنالك جلب الى جامع الزيتونة في أنابيب من رصاص ،

ليستقي منه السكان الذين ليس لهم مواجل بمحال سكناهم.

والجدير بالذكر، أن الحنايا شيدت في العهد الروماني وكانت ذات أقواس منيعة تعلوها ساقية، وجُلِب عليها الداء من عيون زغوان الى قرطاجنة، ثم أضيفت اليه مياه عين جوقار. وفي المدة الأولى، كانت تلك الحنايا تمتد في ارتفاع عشرين مترا على مسافة التسعين ميلا الفاصلة بين زغوان وقرطاجنة، وتشق سهول أودنة، وتخرق منبسط وادي ميلان.

وعندما أضيف الى ماء زغوان ما أضيف. بعد ان أنجزت الأشغال اللازمة لذلك، أصبحت الحنايا تمتد في نفس الارتفاع على مسافة 132 ميلا. وكان عرض ساقية الحنايا 80 متريترا، وارتفاعها مترا و82 سنتيمترا. ومنها كان يتدفق 22 مليوناً ليتر في اليوم — أي 370 ليتر في الثانية.

وقد هدمت تلك الحنايا في عهد الفندال، ورممت في عهد الروم، ثم هدمت في عهد الولاة العرب، فبقيت معطلة طيلة عهود الدول : الأغلبية، والفاطمية، والصنهاجية، وأثناء العهد الموحد، ومدة الأمير الحفصي الأول.

غير أن ذلك الانجاز لا ينسينا ما يؤخذ عليه من التصرفات الشنيعة التي صدرت منه، واتخذت دليلا على « أن الكمال متعذر » ومنها :

— أنه قبض على العالم « ابن الأبار » فحبسه وعذبه، ثم أمر

بقتله قطعاً بالرماح، وبحرق جثته مع سائر تآليفه وكتبه -
لأنه ندي إليه أنه ينتقصه (ج - 1 - تاريخ ابن أبي الضياف
ص. 161) - .

- أنه بينما كان جالسا على حافة الجابية التي يشتمل عليها
بستان قصر «أبي فهر» إذ دخل عليه الشيخ «ابن عصفور»
الامام النحوي، وانضم الى مجلسه. واثار ذلك تحدث الأمير -
وهو معجب بنفسه - وقال للشيخ : لقد أصبح ماكننا
عظيما ! فأجابه قائلا : بنا وبأمثالنا.

فأسرَّ الأمير في نفسه تلك العبارة الدالة على اعجاب
الشيخ بنفسه، وبإشارة منه : ألقى أحد خاصته الشيخ في
الجابية من غير إظهار تعمد. وتناقل الحاضرون عن
إخراجه . ثم أخرج، فرجع الى محله بشيابه المبتلة، فاصابته
حمى مات بسببها بعد ثالث اليوم ! (1).

وقد اعتبر أحد المؤرخين ذلك القول هفوة كبرى،
ودليلا على الجهل بالسياسة ، وأضاف بأنه لو قال له مثلا :
« نعم ! إننا ذلك بحسن تدبيرك وحصافة رأيك الذي جعلنا
نرتع في بحبوحة نعمتك. ونخدم العلم على ما يرضي الله
ويرضيك » لكان الجزاء شيئا آخر.

(1) ج . - 1 - تاريخ ابن أبي الضياف - ص . 162 - .

ومما حدث في مدة هذا الأمير : قيام ملك فرنسا - لويس التاسع - (القديس لويس - Saint Louis) بحملة صليبية على البلاد التونسية، تُعرف بـ (الحملة الثامنة). وكان غرضه إدخالها تحت سيطرة أخيه - صاحب جزيرة صقلية إذ ذاك، لتحرير سكانها النصارى. وقهر أهلها. وكان قيامه بها بتحريض وإغراء من أخيه المذكور، وتشجيع من « البابا » وبعض ملوك أوروبا.

وقد أرسى بأسطوله على قرطاجنة. وأنزل 30 ألفا من المشاة، و6 آلاف من الفرسان - وذلك في 18 جويلية سنة 1270 = آخر ذي القعدة سنة 668.

وهناك اشتدت نار الحرب، وتعددت المعارك مدة أربعة أشهر، استبسل أثناءها التونسيون دفاعا عن بلادهم، رغم اشتداد الحر، ورغم أنهم أخذوا على غرة. وكادوا ييأسون من النصر لولا انتشار مرض « الوباء » بين المغيرين. فهلك به ملك فرنسا والكثير من جنده. وارتحل الباقون بعد قبض غرامة. فأدركتهم ريح عاتية أغرقت سفنهم. وأهلكت كثيرا منهم.

وقد هلك ملك فرنسا في 10 محرم سنة 669 = 25 أوت سنة 1270، ودفن على هضبة قرطاجنة. فكان قبره رمزا للعدوان الفرنسي إلى أن وقعت تغطيته : بضريح أقامته فرنسا

في عهد ما قبل الحماية، باذن من الباى الثامن (حسين الثاني) -
ثم بكنيسة لا تزال موجودة شيدها الفرنسيون. في عهد
الحماية، وتعرف باسم «صانت لويس».

ومن غريب الاتفاق، أن أحد شعرائنا الأمجاد أنشد عند
نزول أولئك الصليبين ما يلي :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتها لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر وتكير

فصدقت الأقدار، ومات ملك الفرنسيين بقرطاجنة،
ودفن بها - (الوئس - م. 137) -.

وفي البيتين تلميح الى أن ذلك الملك « لويس التاسع »
كان كوّن الحملة الصليبية السابعة ، ونزل بأرض مصر سنة
646 هـ = 1248 م. ، فاندحر وتم تأسيـره. فافتدى نفسه بمال
كثير - بعد أن حُمِل على جمل ووجهه الى خلف وطيف
به، وبعد أن سُجِن في دار ابن لقمان تحت حراسة طواشي -
أي خصي اسمه صبيح - ورجع لبلاده خاسئا بعد أن غاب
ستين دون أن يرى القدس.

(3) أبو يحيى زكرياء الأول

هو الأمير التاسع . كان يقيم بطرابلس لما بلغه صدى
نقمة البلاد التونسية على الأمير الثامن « أبي البقاء خالد الأول ».

فدخل البلاد التونسية. ونادى بالثورة، بعد أن اتفق مع والي قسنطينة «أبي بكر بن إبراهيم». ولما رأى الأمير الثامن «أبو البقاء الأول» عجزه عن مواجهته ومقارعته، خلع نفسه لفائدته.

وقد بويغ «أبو يحيى زكرياء» بالامارة عقب دخوله الى العاصمة — وهو طاعن في السن، لكنه كان ممن ساسوا الأمور وجربوها.

وإثر مباشرته للحكم. وممارسته لمختلف الشؤون وإطلاعه على خفايا الأمور. أحس بعجزه عن القيام بمهام الدولة وتسيير دواليبها، وعزم على التخلي عن الامارة.

وقد ضاعف عزمه : تجدّد الاضطرابات في أنحاء البلاد — وتطاول والي قسنطينة عليه — وذلك بدخوله الى البلاد، وقيامه بجمع الضرائب في بعض الجهات من غير أن يقيم له وزناً.

وإزاء ذلك خشي على نفسه العواقب، وقرر مغادرة البلاد وعندما صح منه العزم على ذلك، أخذ بما بخزينة الدولة من الأموال. وجمع ما بالمستودعات من الذخائر والتحف والنفائس وباعها. ثم جمع ما كان موجوداً بالقصور من

الكتب وباعها. وقد تحصل مما باعه على نحو عشرين قنطارا من الذهب، سوى الفضة والدرّ والذخائر.

وإثر ذلك أشاع أنه يريد القيام بجولة داخل البلاد لاستطلاع أحوالها، ثم غادر العاصمة في فاتح سنة 717 هـ. = 1317 م.، واتجه نحو مدينة قابس، ومنها سافر الى طرابلس، ثم الى مصر.

وقد أخذ معه أمواله، والذخائر التي احتفظ بها. واصطحب أهله وسائر بنيه إلا ابنه وولي عهده «محمد أبا ضربة» لانه كان مسجوناً بسجن قاضي الجماعة.

ورافقه في سفره : الرحالة «أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني» الى طرابلس، ومنها رجع الى العاصمة التي بلغت غيبته عنها 975 يوماً، وألف رحلته (رحلة التجاني).

وإثر سفر الأمير «أبي يحيى زكرياء» وتحقق أهل الحال والعقد من تخليه عن الامارة، وعزمه على عدم الرجوع، بايعوا ولده وولي عهده «محمد أبا ضربة» بعد أن أخرجوه من سجن قاضي الجماعة، فكان الأمير العاشر.

وسبب وجوده به دليل على أن والده كان يحترم القضاء — أي لا يتداخل في شؤونه، ويترك للقاضي حريته.

وبيان ذلك، أن « محمدًا أبا ضربة » اتهم بجريمة قتل عمداً. فمكنه أبوه لقاضي الجماعة « أبي اسحاق إبراهيم ابن عبد الرفيح » للقصاص فحكم عليه بالموت، إذا اعترف بالقتل، وثبتت إدانته.

ولما عفا عنه أولياء القتل — أي أسقطوا عنه الدعوى ، أبدل قاضي الجماعة الحكم : بالضرب مائة، وبالسجن مدة عام — وذلك حسب أحكام المذهب المالكي. (4) أبو حفص عمر الثاني.

هو الأمير الثاني عشر.

بوع بالامارة — ولم يكن ولياً للعهد، فاستقام له الأمر وتلقب بالناصر. وبعد شهرين قام عليه ولي العهد أخوه « أبو العباس أحمد » وبايعه الناس، وتلقب بالعمدة على الله. فالتحق « أبو حفص عمر الثاني » بمدينة باجة ومعه معظم الجيش. وبعد أسبوع رجع إلى العاصمة وحاصرها، واستولى عليها ، وقتل أخاه المذكور ، واسترجع السلطة.

وبعد عشرة أشهر وأيام، هوجمت البلاد من طرف جيش مغربي بقيادة « أبي الحسن المريني »، الذي استضعف « الدولة الحفصية » ، وتمكن من احتلال العاصمة، ومن قتل الأمير « أبي حفص عمر الثاني » . ولكن إقامته لم تطل، لأن السكان ثاروا عليه وأجبروه على الهروب، وبايعوا « أبا العباس الفضل » فكان الأمير الثالث عشر.

(5) أبو العباس أحمد الأول.

هو الأمير السادس عشر.

قضى على الانفصاليين، واستقامت الامور. وقد غلظ أمره وعز نصره، وسارت أساطيله تغزو في البحر وتباشر القرصنة، مما دعا جماعة من الصليبيين الافرنج، من أهل جنوة والبندقية، إلى القيام بهاجدة مدينة الدهدية بجيشهم وأسطولهم ليأثروا من القرصان، فنازلوها مدة شهرين، أطردها في نهايتها من طرف قوات حفصية.

ومن مآثره أنه اشترى محلا أطلق عليه اسم (دار الضيوف) وذلك بثمن قدره ثلاثون ألف دينار. جمعها من مبلغ كراء شهرين. استخلصه من مالكي دور العاصمة التي بلغ عددها إذذاك سبعة آلاف دار.

وقد اشتراها بعد أن أبطل أحد أسلافه ضريبة النزول التي كانت تستخلص من سكان العاصمة، وتنفق على ضيوف البلاد. وأناط تدبير شؤونها بمعهد وكيل يتولى الانفاق من مالية الدولة على من ينزل بها ضيفا من أبناء الملوك المسلمين وغيرهم، ومن المكلفين بمهام مختلفة من قبل ولاية أمورهم، ومن الرحالين، وغيرهم. ودام وجودها فيما أعدت له إلى تاريخ انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد (1).

(1) هـ . 68 - تاريخ معالم التوحيد - بتصرف .

وفي أيامه أقبل « عبد الله الترجمان » وأسلم على يديه.
 وكان قسيساً من قسيسي النصارى. وقد أسماه العوام (سيدي
 تحفة)، وتوفي سنة 882 هـ = 1477 م، وقبره معروف
 بسوق السراجين بتونس. وخلف أثراً هاماً هو كتاب
 (تحفة الأريب) في الردّ على أهل الصليب (2)

(6) أبو عباس عبد العزيز .

هو الأمير السابع عشر، قام بالأمر أتم قيام، إذ أرضخ
 الجهات المنشقة، وأخذ شوكة أهلها، ورتب الأحوال،
 وأصلح البلاد، وقمع أهل الفساد، وأبطل القيان، وتقى
 المختشين من العاصمة، وأقام العدل بين السكان، وأنصف
 المظلومين من الظالمين. وغزا اسطوله صقلية، وغنم مغانم
 كثيرة. ونجح في ترحيل نصارى عن جزيرة جربة بعد أن
 غزوها ونزلوا بها.

وشيدت بأمر منه قنطرة ممتدة في طول سبع كيلومتر،
 تتصل في جسر ثابت كالطريق البري، يربط جزيرة جربة
 باليابسة من جهة جرجيس. وقبل ذلك كان الناس لا يدخلون

(2) ص . 180 - تاريخ ابن أبي الضياف - ج . 1 - . وبها
 منصوص على أن الفراغ من تأليف هذا الكتاب كان سنة 823
 م . = 1420 م . .

إلا في السفن وقد خربت هذه القنطرة مع طول السنين،
ووقع إصلاحها في عهد الحماية الفرنسية. (1)

وبفضل ما تقدم ذكره، ازدهرت البلاد، وبلغت شأوا بعيدا
في الثورة وال عمران، واعتُبر الأمير « أبو فارس عبد العزيز »
عضد الدولة وواسطة أمرائها.

(7) أبو عبد الله محمد

هو الأمير الحادي والعشرون. ورث إرثا ثقيلا لم يكن
بوسعهم أن يقوم به، ولا أن يصلح ما أفسده بعض أسلافه. وجاء
بشأنه في تاريخ ابن أبي الضياف : « أتى والدولة على انقراض،
بمزم الأُمراض، من سد أبواب التغيير والاعتراض ».

فقد كانت الثورات متوالية في عدة جهات، والبلاد
هدفا للغيرين. بعد أن استولى الأسبان على طرابلس، وعلى
مدينة بجاية، وحاصروا مدينة الجزائر، واحتلوا جزيرة جربة.
ومن جراء احتلال جزيرة جربة، قاسى أهلها الأمرين.
واكنهم كبدو الأسبان الخسائر الفادحة، وانتقموا منهم
شديد الانتقام، وبنوا برؤوس وأيدي وأرجل القتلى منهم
برجا كالعنارة — سمي (برج الجماجم) على الساحل الجوفي،
بدرسى حومة السوق. وبقي ذلك البرج في مكانه إلى أن وقع

1) ص 104 — مؤنس الاحبة فى اخبار جربة .

دفعه فيما بعد، وتعويضه بنصب تذكارى لا يزال موجودا -
وذلك فى عهد ما قبل الحماية، باذن من الباى العاشر
(أحمد الأول)، استجابة لبعض السفراء الأجانب - سنة
1265 هـ = 1848 م. - .

كما نزل بجزيرة جربة الأخوان خير الدين باربروس،
وعروج. وأصلهما من مسلمى بلاد اليونان التى كانت تحت
سلطة تركيا يومئذ، واشتهرا بالقرصنة إذ كان لهما أسطول
يغيران به على المراكب المسيحية فى البحر الأبيض المتوسط،
تحت رعاية الامراء الحفصيين الذين يقاسمونهما الغنائم والسبايا.
وقد قوى شوكتهما، وشاع خبرهما، وتوطدت الصلة
بينهما وبين الأمير « أبى عبد الله محمد » الذى أباح لهما
الاستدرار فى نشاطهما مقابل دفع الخمس له.

ولما حاصر الاسبان مدينة الجزائر ، استنجد سكانها
بالأخوين عروج وخير الدين باربروس، فاحتلّاها، ثم قاما
بغارة على مدينة تلمسان فقتل أثناءها الأول، وبقيت مدينة
الجزائر وما حولها بيد خير الدين، فأعلن ولائه لدولة تركيا،
فأمدته بقوة تمكن بفضلها من التوسع، ومن طرد الاسبان
من بجاية، وأصبح واليا تركيا ببلاد الجزائر، واستغنى عن
حماية الحفصيين.

وتبعاً لما سجلناه، تضعفت أركان الدولة الحفصية، ولم

يقدر الأمير « أبو عبد الله محمد » على دفع السهام المتجمعة.
ولذلك يعتبره المؤرخون آخر أمراء الحفصيين.

(8) الحسن بن محمد

هو الأمير الثاني والعشرون. ورث الامارة وأركانها
مضعفة، والدولة في نقص وتراجع، والبلاد ضعيفة، والتعاسة
ضاربة أطنابها في ربوعها : نتيجة تعدد الثورات، وانشقاق
عدة جهات - ومنها مدينة القيروان.

وفي ذاك الجو، رأى (خير الدين باربروس) - وهو
يومئذ والي الجزائر - أن يغتنم الفرصة، ويستولي على
البلاد التونسية. فسار بأسطوله ونزل بمدينة بنزرت واحتلها،
ثم تقدم براً إلى حلق الوادي واحتلها، ثم إلى العاصمة واستولى
عليها بعد أن فر الأمير (الحسن بن محمد) - وذلك سنة
935 هـ = 1528 م. - .

وبعد أن فشل الأمير (الحسن بن محمد) في التغلب على
المهاجمين ، استنجد بملك إسبانيا (شراكان - أي شارل
الخامس)، فاستجاب لطلبه، ونزل بحلق الوادي بأسطول
عظيم فيه مائة ألف مقاتل. ثم زحف على العاصمة واحتلها،
بعد أن انتصرت قواته على المحتلين وأجبرتهم على الالتحاق
بالبجائز.

وتبعاً لذلك. استضعف (ملك إسبانيا) السلطة الحفصية. فقام جيشه باذن منه باستباحة العاصمة مدة ثلاثة أيام : بالقتل والسلب والنهب. يضاف الى ذلك أنه عاث فساداً في منشأتها وخيراتها وهاجم على جامع الزيتونة. وربط خيله به. وأحرق وبدد ما بمكتباته من المجلدات.

وإثر ذلك : تمكن (ملك إسبانيا) من فرض إرادته على الأمير (الحسن بن محمد) وتحصل منه على إمضاء معاهدة أصبحت البلاد التونسية بتمتضاها (محمية إسبانية) وذلك في 6 صفر سنة 942 = 6 أوت سنة 1535 --- (1).

وفيها اعترف « الأمير » بذلك. والتزم : بتدكين الاسبان من الإقامة أينما شاءوا بالبلاد -- ومن إقامة طفوسهم الدينية بحرية تامة -- وبالتنازل عن حلق الوادي وبنزرت -- وبدفع غرامة قدرها 120 ألف فرنك ذهباً.

وإثر ذلك، احتل الاسبان سواحل البلاد -- وخاصة : حلق الوادي، وبنزرت، وسوسة، والمنستير، والمهدية، وصفاقس. وقرقنة، وجربة وطرابلس، ورجع ملاكهم الى إسبانيا مع بقية قواته.

وقد قام الاسبان بعدة تحصينات. فأنشأوا قلعة حربية بكل

من جزيرة شكلي، وبتزرت، وبرج زوارة، والمنستير -
وبرجا حربيا بالمهدية، وحصنا بقليبية.

أما حصن جزيرة جربة، الوجود آثاره على ساحلها
القبلي، والمعروف باسم (البرج الكبير أو قسطيل الواد) ،
فقد بنوه بها عندما احتلوها سنة 688 هـ. = 1289 م. في مدة
الأمير الخامس « أبي حفص عمر الأول »، ووقعت محاصرته
والغلب على حاميته سنة 738 هـ. = 1337 م. ، في مدة
الأمير الحادي عشر « أبي بكر بن أبي زكرياء » (1) .

وفي ذلك الجو، قام الأمير « الحسن بن محمد » بمهاجمة
القيروان لارجاعها الى العجادة. فانهزمت قواته، وبقيت
القيروان على انشقاقها تحت إمرة شيخ الطريقة الشاذلية
« الشيخ عرفة ».

أما المعاهدة، فقد قوبلت بالامتناع التام، إذ لم ترق
في أعين السكان. وساءت الاحوال إثر احتلال سواحل البلاد،
فتجددت حوادث المقاومة، وردود الفعل بصورة بطول
شرحها ولا يتسع المجال لبسطها، واشتد الغضب على الأمير
« الحسن بن محمد » وثار السكان عليه، وباعانة ولده
« أبي العباس أحمد » سملوا عينه، فصار أعمى - وذلك
سنة 950 هـ. = 1543 م. - .

(1) ص . 102 - مؤنس الاحبة اقل اخبار جربة .

وبعد مدة قضاه بالعاصمة تحت رقابة ابنه المذكور،
فرَّ الى القيروان وأقام بزواية « الشيخ الجديدى » حيث توفي (2).
وأثناء إقامته هناك، دخل عليه ذات يوم بعض أولاد
« الشيخ عرفة »، وناولوه عودا وقالوا له : نريد أن
تسمعنا من غنائك بالعود ! وألزموه ذلك استخفافا به ! فأخذ
العود ووجهه بيده وقد كَبُرَ عليه إقدامهم بما لا يليق بمثله،
فأنشدهم هذا البيت :

وكنا أسودا والرجال تهابنا اتانا زمان فيه نخشى الارابا

وألقى العود من يده، وجهش بالبكاء. فخرج الأولاد من
بين يديه لا يدري أحد منهم أين يضع قدمه. - « المؤنس -
ص. 167 و 168 ».

(9) أبو العباس أحمد الثاني

هو الأمير الثالث والعشرون، ويسمى « حميدة ». بويع
بالامارة خلفا عن والده « الحسن بن محمد » والأمور
متداعية، والبلاد على حالة فوضى، والانتقامات متعددة،
والحوادث متجددة، والأحوال مختلفة. فاستضعف البلاد أهل
نابلي وجنوة، وغزوا مدينة المهدية ونهبوها. وهدموا سورها،
ثم أقفلوا - وذلك سنة 957 هـ = 1550 م. وغزا القائد التركي

(2) ص. 15 - ج 2 - ابن ابى الضياف .

« درغوٹ باشا » بقواته طرابلس، وانتزعها من الاسبان الذين كانوا يحتلونها، وأصبح واليا عليها - وذلك سنة 958 هـ. = 1551 م.. وهاجم أهل نابلي وجنوة بعد ستين جزيرة جربه واحتلوها، وامتلات أيديهم من مغانمها، فأطردهم منها « درغوٹ باشا » بعد أن مكثوا بها سنة أشهر.

واستنجد أهل القيروان « المنشقة » بوالي طرابلس (درغوٹ باشا) ضد الشايين الذين كان يتزعمهم (الشيخ أبو الطيب) ، فأنجدهم وقضى على الشايين سنة 966 هـ. = 1558 م.، حسبما يأتي خبره في إبانة. وخلف حامية عسكرية على رأسها قائد تركي يدعى (حيدر باشا) الذي كون جيشا انضمت اليه عناصر مختلفة - حسبما يأتي خبره.

وتشجع السكان، فازدادوا تمردا، وقاسوا الأمرين من الاسبان الذين اقترفوا معهم مختلف الفضائح، وعاملوهم معاملة جور، وانتقموا منهم بتهديم الحنايا المجلوب عليها الماء من زغوان فأصبحت المياه ضائعة تسقي بساتين زغوان وغيرها. « ص. 453 - تونس عبر التاريخ » وتناولوا على المساجد وهتكوا حرمتها. واغتصبوا جامع باب البحر بتونس وجعلوه مستودعا لذخيرتهم. وعاثوا فسادا في زاوية الشيخ « محرز بن خلف » ونبشوا ضريحه.

وأثبت أحد الشيوخ في تقرير رسمي (1) : « أن الاسبان
حيوانات ضارية في صورة آدميين. فمن قبائح فعلاتهم مع
التونسيين. وعبثهم في البلاد : أن ربطوا خيولهم بجامع
الزيتونة الأعظم، وحفروا حفرا صغيرة في بلاط صحنه كي
لا تعثر بهم خيولهم. واستباحوا ما بالجامع من الكتب العلمية.
فداسوها بخيولهم بعد أن ألغوها بالطرقات ومزقوها بسيوفهم،
وغير ذلك من أفعال الحيوانات العجم ».

ومن جهة أخرى، شيدوا حصنا اشتهر باسم (الباستيون)
خارج باب البحر بالعاصمة حيث السفارة الفرنسية حاليا.
وجددوا بناء الحصن الذي كان بوسط بحيرة تونس. ورمموا
حصن حلق الوادي وأسوارها.

وقد اعتبر السكان تلك الأعمال تحديا لهم. واشتد غيظهم.
وامسوا ناقلين على الاسبان والأمير الحفصي معا. وفقدت
البلاد أمنها وسلامها، من جراء حوادث المقاومة الشعبية
وردود الفعل الاسبانية. وفقد الجيش الحفصي معنوياته.
وضعت قواه، واعتراه الفشل، وتفككت عناصره، وتشتت
شملة.

(1) حرره الشيخ أحمد بن الخوجة في احوال جامع الزيتونة
قبيل وفاته سنة 1313 هـ . = 1895 م . المصدر : كتاب تاريخ
معالم التوحيد - ص . 14 - .

وإزاء ذلك، تولى الأمير « أبو العباس أحمد » تأليف جند ملكي جديد : من فرقة للمشاة من السودانيين، وفرقة للفرسان من البدو تعدّ ثلاثة آلاف — عرف باسم « زمازية ». وقد واجه به قوات تركية هاجمت البلاد سنة 977 هـ. = 1569 م.، بقيادة والي الجزائر الجديد « علي باشا » الذي خلف « خير الدين باربروس » بعد وفاته.

فانتصر المهاجمون، واحتلوا العاصمة، وانضم إليهم « الزمازية » بعد أن فر الأمير « أبو العباس أحمد » الذي استنجد بملك إسبانيا. فأنجده بأسطول عظيم على شرط يقتضي الاشتراك في الحكم والجباية، فرفض قبوله، وارتحل إلى جزيرة صقلية، وبقي بها إلى أن توفي، فجيء به إلى تونس، ودفن بزاوية الشيخ قاسم الجليزي. « ص. 18 — ج 2 — ابن أبي الضياف ».

(10) محمد بن الحسن

هو الأمير الرابع والعشرون — وآخر الأمراء الحفصيين. رضي بالشرط الذي رفض أخوه قبواه، وتقاسم السلطة مع نائب ملك إسبانيا، وتمكن الإسبان من ردهجوم المغيرين، ومن الإقامة بالبلاد، وتحمل السكان من جراء تصرفاتهم جورا لا يوصف، وقابلوها بردود فعل مشرقة.

غير أن مدة إقامتهم لم تطل، ولم ينفعهم طغيانهم.

ذلك أن (حيدر باشا) الذي بقي بالقيروان، وأسلمنا القول بشأنه، تخابر مع قائد الحماية التركية بطرابلس، واتفقا على مهاجمة العاصمة التونسية، وعلى أن يلتقيا بقواتهما بضواحيها.

وفعلا، التقيا على رأس قواتهما بالمكان المسمى اليوم بـ(المحمدية). وهناك قويت عزيمتهما، إذ علما بقدوم (سنان باشا) وزير السلطان العثماني الحادي عشر (سليم الثاني) في البحر على رأس قوات عثمانية من تركيا.

وحسب خطة تم تسطيرها، هاجم كل من جهته القوات الاسبانية، بحلق الوادي والعاصمة، بمشاركة السكان الذين انضموا إليهم. فكان النصر حليفهم، وتشتت شمل الاسبان، والتحق الاحياء منهم ببلادهم، وأخذ الأمير (محمد بن الحسن) أسيرا إلى تركيا.

وهكذا سقطت الدولة الحفصية، وتخلت البلاد من الحماية الاسبانية، وأصبحت تحت حكم الدولة التركية (إيالة عثمانية - وذلك في 6 جمادى 1 سنة 981هـ. = 3 سبتمبر سنة 1573 م. - .



اسطرلاب فضی

الفصل - 7 -



الحياة الثقافية

في هذا العهد نهضت الثقافة نهضة لم يشهدها المغرب العربي من قبل، فقد :

— انتشر التعليم بالبلاد بواسطة الكتاتيب، والمدارس، والجوامع، والزوايا.

— وانتشر بالعاصمة بمثل ذلك، وبواسطة مدارس رسمية كثيرة وقع تأسيسها — ومنها : مدرسة بالقصبة، في البلاط الحفصي — مهمتها العناية بأبناء الأمراء، وتكوين مستخدمي الدولة. ومنها : مدرسة التوفيق، والمدرسة العنقية، والمدرسة المنتصرية، والمدرسة الشماعية، والمدرسة المرجانية، والمدرسة العصفورية.

وقد جلب لها الأمراء الأساتذة من الأندلس ومن طرابلس وغيرهما. وأسكنوا بها الطلبة، وقاموا باطعامهم، وكونوا لهم بها المكتبات، فقامت بأكبر قسط في تكوينهم تكويناً جامعياً.

ذلك أن مناهج الدراسة فيها كان يركز على جمع عناصر الثقافة الممننة في وحدة تكاملية امتزاجية، تتولد عنها ملكة راسخة، تمكن الخريج من معالجة المباحث للتحقيق والتوليد والابتكار، بالتخصص المبني على المشاركة الواسعة، إذ لم تكن العلوم نقلا وتلقينا، بل كانت تكوينا وتوجيها اتوسيع نطاق المعارف، بالبحث والانشاء والتحرير. (1).

— وانتشر أيضا بواسطة جامع الزيتونة الذي رسخ التعليم به، وتشعشت أنواره، وتطور شيئا فشيئا حتى صار فيما بعد أكبر جامعة إسلامية عرفت بلاد المغرب العربي بأسرها، وأثبت علماء أفذاذا في مختلف المجالات.

وقد انتظام التدريس به، وبذلك المدارس والجوامع والزوايا، وتكاثرت الدروس— وخاصة في علوم اللغة والشريعة والفقه والحديث والتفسير وغيرها، ولم يتقاصر أمرها إلا في عهد الحماية الاسبانية.

وعمت الثقافة البلاد بفضل ذلك، وبواسطة المكتبات الكثيرة التي أنشئت— ومنها: مكتبات قصور الأمراء، وخاصة مكتبة قصر الامارة بالقصبة التي جمع بها أنفس المجلدات— ومنها: مكتبة جامع الزيتونة المسماة بـ(العبدلية) التي

(1) كتاب اعلام الفكر الاسلامي — ص . 65 .

اشتملت خزائنها على أنفس الكتب، وبلغ عددها 36 ألف مجلد في القرن الثامن الهجري = 15 ميلادي.

وتبعاً لما سبق، وبفضل تنشيط بعض الأمراء للعلم وذويه وللأدب والشعراء - وبفضل ما أوقفه أهل البر والاحسان من الأرزاق الجارية، وقع الاقبال على طلب العلم، وازدهرت الثقافة، وانتعش الأدب، ونشطت حركته، وارتقى الطب الذي حمل لواءه خريجو المدرسة الصقلية والمدرسة الاندلسية، وازدهر علم الفلك، واستعمل في تعليمه «الاسطرلاب» الذي وقع صنعه محلياً - وذلك لمعرفة : مواقع الكواكب ومدى ارتفاع الثابتة منها والسيارة - ومقدار الارتفاع بين الأمكنة - وخطوط الطول والعرض للبلدان - وأوقات الصلاة. وعدت البلاد نهضة علمية مباركة في مختلف العيادين، وأصبحت أم البلاد المغربية وقطبها الأكبر بلا منازع.

ومن مظاهر تلك النهضة ازدهار النشر الفني الذي امتازت به رسائل ذلك العهد. كما ازدهر الشعر، وخصوصاً الشعر المرتجل في المناسبات .

وساهم في تلك النهضة بقسط وافر مهاجرو الأندلس والمثقفون. وكان بلاط الأمراء عامراً بالشعراء والادباء والظرفاء. وكانت الندوات الأدبية والعلمية تنعقد في كثير من بيوت الأمراء والأعيان، بضواحي العاصمة، في إطار فني يعتبر من بعض جوانبه نسخة من الحضارة الإسلامية بالأندلس.

— وفي ميدان الفن، انتعشت الموسيقى التونسية بالنوبة
الغرناطية منذ قدوم مهاجري الأندلس. واشتغل الناس
بالتواشيح، والأشغال الأندلسية، وألفوها حتى عرفت
(بالمالوف). وبذلك ارتقى الفن.

يضاف إلى ذلك :

— أن عادة الغناء، وضرب الطبل، ونقر المزمار، فسي
حفلات الأفراح، كانت منتشرة بين السكان.

-- وأن قصور الأمراء لم تخل من عود، ومزمار، ومغن،
ومغنية — وبالأخص في مدة الأمير الثالث عشر «أبي
العباس الفضل».

وقد نقل «محمد الوزان» بشأن أحد الأمراء وعاداته
ما يلي :

«..... ويستعمل قسما من ماله في بناء القصور والمعالم،
حيث يعيش مع الدغنيين والدغنيات، متنقلا بين آونة وأخرى
من منتره إلى منتره. وإذا أراد أحد المغنين أن يغني في
حضرته عصبت عيناه»

وروى «الزركشي» في كتابه (تاريخ الدولتين :
الموحدية، والحفصية) : أن الأمير السابع عشر «أبا
فارس عبد العزيز» رفع عن المغنيات المجابي والمغارم
التي كنّ ملزومات بها من قبل.

ومن جهة اخرى، فان الجيش كانت له فرقة فنية يعرف أصحابها بـ(أصحاب النفير) سبق لنا التعرض لها ضمن الجيش. وكان المؤذنون بجامع الزيتونة ينفخون، بأسلوب فني، في أبواق، قبيل فجر كل ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم، لينبهوا الناس أن وقت السحر قد حان، وعليهم تناول السحور - (ورقات - 2 - ص. 233 و 234).

- وأشهر علماء هذا العهد :

- ابن خلدون ولي الدين أبو زيد عبد الرحمان - في التاريخ والاجتماع. وهو أبرز شخصية أنجبتها البلاد بكونه أول واضع لعلم الاجتماع، وأول من طرق علم التاريخ بتجرد ورأي ثاقب.

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، في التاريخ وقد ترك أثرا هاما - وهو « رحلة التيجاني » التي ضمنها تاريخ معظم مدن البلاد التونسية وقراها، وتحدث فيها عن مشاهداته اثناء الرحلة التي قام بها - برفقة الأمير الحفصي التاسع « أبي يحيى زكرياء الأول » سنة 717 هـ. = 1317 م. - ، والتي أسلفنا القول بشأنها.

- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر، في التاريخ. وقد ترك كتابه « تاريخ الدولتين » الذي استعرض فيه تاريخ الموحدين والحفصيين ، وطبع لأول مرة بتونس سنة 1289 هـ. = 1872 م. - .

— ابن أبي دينار القيرواني، أبو عبد الله محمد، في التاريخ. وقد ترك أثرا أكسبه شهرة كبيرة — وهو كتاب «الوئس» الذي ضمنه تاريخ إفريقيا وتونس، وطبع لأول مرة بتونس سنة 1286 هـ. = 1869 م. — .

— الامام محمد بن عرفة في الفقه — وأبو إسحاق ابراهيم بن عبد الرافع في القضاء — وابن الشباط محمد بن علي التوزري في العلوم والقضاء، وخاصة بتوليه قسمة مياه عيون الجريد على غابة نخيلها. وأحمد الخولاني، وابن الحشاء، وعبد القاهر التونسي، في الطب.

— وأشهر أدباء هذا العهد :

— أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي. وكان يسمى ملحق الاباء بالأبناء، لطول عمره وقدم مولده . وتوفي بالعاصمة سنة 662 هـ. = 1263 م. ، في مدة الأمير الثاني (محمد المستنصر بالله). وله شعر حسن والدوجود منه قليل. ومنه قوله :

عكفنا على الكاس في جنة نحاكى بها ميل اغصانها
ورسل النسيم بها سحرة تعرش ما بين ريحانها
اظن تغاريد الحانها زهتها فاصغت بأذانها

— محمد بن أحمد التجاني (والد الرحالة أبي محمد عبد الله). وكان أدبيا ضليعا يقرض الشعر الطيب بالمناسبات — ومنه أبيات بعث بها، من العاصمة الى ابنه المذكور، أثناء قيامه

برحلته، ووصلته أثناء إقامته بمدينة قابس — ونصها :

حملتم القلب اذ جد الرحيل بكم
من الصباية ما لا تحمل الا بل
فلو سلكتم سبيل الحزم ما عجزت
اذ ذاك منى عن دفع النوى الحيل
لكن عرانى ذهول يوم بينكم
كما يكابد من احبابه رحلوا
فالله يجمع منا الشمل عن عجل
فالخير اجمل ما فى نيله العجل

— واشهر الفنانين في هذا العهد :

— الشيخ محمد الظريف. وهو ممن سلك طريق التصوف.
وكان بارعا في جملة فنون منها الدوسيقى. وله أشعار
رائقة، في تهذيب الأخلاق، والمواعظ، وخصوصا في
وصف الطبيعة، ومن جملتها : قصيد أورد فيه سائر المقامات
الغنائية، ويعرف بناعورة الطبوع — أي أدوار الألحان
المشهورة في وقته بأسائها المغربية.

— الأمير الثالث عشر « أبو العباس الفضل ». وقد كان أركان
الأمراء الى صحبة أرباب صناعة الغناء، والمهوى، والمضحكين،
ومن اليهم، حتى قيل فيه :

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
اما ترى الشمس فى الميزان هابطة
لما غنت بين برج اللهو والطرب

— أبو عبد الله محمد بن عميرة: وقد كان ذا صوت مطرب، وتلاحين لطيفة، ومرموقا بين الخاصة والعامة بالتقدير والتكريم.

— الأمير الثاني والعشرون «الحسن بن محمد». وقد كان بارعا في الغناء والضرب على العود، وسبق الكلام عنه في الموضوع.

— الأمير الأخير «محمد بن الحسن» وقد كان أبرع ضراب للعود، ومن أقدر المتصرفين في أنواع الغناء.

— هذا ومن الملامي ووسائل التسلية التي كانت موجودة إذذاك : المقاهي الأدبية والصوفية — وألاعيب خيال الظل — وتدخين لحاء القنب، وهو ما يفتل منه اليوم حبال وخيطان ويعرف باسم «القرنب = (chanvre)».

الفصل - 8 -



الحياة الاجتماعية

في هذا العهد. تمكن الأمراء من بسط سلطانهم على البلاد بصفة عامة، ومكنوا لأنفسهم في بعض المدن الهامة بصفة خاصة - على الرغم من تعدد الثورات. وبذلك كان الحكم أوطد وأزهر مما كان عليه في العهود السابقة - خاصة في مدة الأمراء الأولين.

وكانت عناصر الشعب تتكون من البربر والعرب الذين وحد بينهم : الدين الاسلامي، واللغة العربية، وانتسابهم الى بلاد المغرب العربي، وامتزجوا بالمصاهرة. وجمعهم سنيون مالكيون.

ومُساكنوهم :

- اليهود، وهم أهل ذمة كانوا يدفعون الجزية الى الخزينة التونسية عن طيب خاطر، ويعمرون بالعاصمة حيا خاصا، أنشأه لهم « الشيخ محرز بن خلف » في العهد الصنهاجي،

يعرف بـ(الحارة)، ويتمتعون بكثير من أنواع التسامح الديني فيقيمون شعائرهم الدينية في أمن ودعة.

— والنصارى، وهم أروبيون جلبهم الى البلاد مغنطيس الأمن والعدل للتجار. وكانوا يرجعون في غالب أمورهم الى كبارهم، ويعمرون بالعاصمة خارج باب البحر فنادق خاصة، تحوات فيما بعد الى مساكن، تكون منها ربض خاص، كان الصورة الأولى للحي الأروبي أو المدينة الحديثة، وامتااز برحبات واسعة كان الناس يبيعون فيها ويشترون.

— والرقيق، وكانوا يكونون طبقة كبيرة، ولم ينظر غيرهم إليهم نظرة امتهان وازدراء. وكانوا يباعون ويشترون بالعاصمة في سوق البركة المعد اليوم للصاغة.

— وبعض مهاجري الأندلس، وكانوا يعمرون بالعاصمة وبنزرت وغيرهما أحياء خاصة نسبت إليهم. وقد نقلوا الى البلاد تقاليدهم وصناعاتهم وحرفهم ومعايشهم، واشتهر من بينهم كثيرون في مختلف المجالات — ومنهم : ابن الأبار — وابن الغماز — وبنو عصفور — وبنو خلدون.

وكان سلوك الأمراء نحو السكان في جملته حسنا ولينا. فقد أسدى أغلبهم لهم كثيرا من الأعمال الطيبة، وأسقطوا عنهم الضرائب أكثر من مرة، وأنشأوا لفائدتهم كثيرا من المشاريع التي جلبت لهم الرفاهية، وعادت عليهم بالنفع العظيم، وازدهر بها العمران — ومن ذلك :

— إحداث سقايا بالعاصمة وبيع بعض المدن — ومنها : سقاية شرقي جامع الزيتونة.

— وإنشاء عدد كبير من الصهاريج والموارد السابلة، وحفر الابار، وتنظيم توزيع المياه بواسطة الخزانات.

— وتشيد أو تجديد أو ترميم الاسوار والقناطر والحصون ومنها : قنطرة وادي الفصل بهرقلة، وحصن بالعاصمة.

— وإنشاء الأسواق والحمامات بالعاصمة، وبدن سوسة والمنستير وصفاقس. وسنقتصر على ذكر بعضها نظرا لكثرة عددها.

— وبناء أو ترميم المدارس والجوامع والمساجد بالعاصمة وغيرها. ونظرا لكثرة عددها سنقتصر على ذكر بعضها في الفصلين 7 و 12.

— وإحداث عدة محارس في الثغور البحرية للرابطة، وعدة زوايا في الطرقات لأبناء السبيل — ومنها : زاوية بعين الزميت بين تونس وباجة، وزاوية الفندق قبلي جبل زغوان، وزاوية قرباطة بين قفصة وتوزر.

— وبناء عدة كتاتيب، وتشيد ميضاة بسوق العطارين حذو المكتبة الخلدونية.

وكان من نتائج انتشار العدل في مدة معظم الأمراء أن أقبل الناس على العدل، فتمت الثروة العامة، وارتفع مستوى

العيش، وأينعت الحضارة بالعاصمة وبأغلب المدن، حيث
كثرت ترف السكان، وتأنقوا في الملابس والماعون والانية
والمراكب وتعددت مظاهر الرقي.

وتبعاً لذلك، نشطت حركة المباني نشاطاً ملحوظاً بيد
أنها لم تكن واسعة النطاق. وبفضلها بلغ عدد المنازل
بالعاصمة وحدها سبعة آلاف سنة 763 هـ = 1361 م. حسبما
نقل عن ابن الشماخ - وبلغ عددها عشرة آلاف سنة
922 هـ = 1516 م. حسبما نقل عن الزياتي.

والملاحظ، أن أغلب تلك المساكن كانت صحية،
وتشتمل على آبار وموارج. وأدى اعتناء السكان بالنظافة إلى
الأكثار من تشييد الحمامات، والتفنن في إتقان بنائها
ونظافتها - ومنها : حمام الرميحي.

وإثر قدوم مهاجري الأندلس الذين ساعدوا في النهوض
بالبلاط وترقيتها، وازدهار حضارتها، أصبح تأثير السكان
شديداً بالفن المعماري الأندلسي في تصميمه ونقشه وتجليزه.

- وأنشأ الأمراء قصوراً مشتملة على بساتين - أشهرها :
قصر باردو، وبرج السلاسل بالمرسى، وقصر رأس الطابية،
وقصر أبي فهر قرب أريانة الذي وصفه ابن خلدون في
تاريخه (1) بما يلي :

(1) ج . - 1 - ص 412 - طبع الجزائر

« واتخذ (محمد المستنصر بالله) خارج العاصمة، القصر الطائر الذكر المعروف بأبي فهر - يشتمل على جنات معروشات، اغترس فيها من شجرة كل فاكهة، من أصناف التين والرمان والنخيل والأعناب، وسائر الفوكة، وأصناف الشجر.

ونضد كل صنف منها في دوحه، حتى لقد اغترس من السدر والطلح، والشجر البري، وسمى هذه (الشعراء). واتخذ وسطها البساتين والرياضات، بالمصانع والحدائق، وشجر النور والتزه من الليم والنارنج والسرو والريحان، وشجر الياسمين والخيري والتيلوفر وأمثاله.

وجعل وسط الرياض روضا فسيح الساحة، وضع فيه للماء حائزا من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة التي كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة. متى تنبعث من فوهة عذيمة الى صهريج عميق المهوى، رصيف البناء، متباعد الأقطار، مربع الفناء، مجلل بالكلس، فيفهم حوضه، وتضطرب أمواجه، تطرقه الحضايا عن السعي بشاطئه لبعد مداه، فيركب في الجواري المنشئات ثبجه، فيتبارى بهن تباري الفتح.

ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبيرتا وصغرا على أعمدة المرممر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجد، ورفعت سقفها من الخشب المقدر بالصنائع المحكمة، والأشكال المنمقة، الى ما اشتمل عليه هذا الرياض من المقاصير

والأواوين والحوائز والقصور، غُرُفا من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار.

ثم وصل (محمد المستنصر بالله) ما بين قصوره ورياض «رأس الطابية» بحائطين مهتدين يحوزان عرض العشرة أذرع، يحتجب به الحرم في خر وجهن الى تلك البساتين، حتى لا تقع العيون عليهن - فكان ذلك مصنعا فخيماء، وأثرا على أيام الدولة خالدا». (تاريخ ابن خلدون - ج - 1 - ص: 412 - طبع الجزائر).

- وتبعنا لما سبق، نضيف أمورا تتعلق بالعاصمة، وبعض المدن، وبجزيرتي قرقة وجربة، تنير الحياة بها، وتعطي صورا مصغرة عما جد بها من حوادث مختلفة في ذلك العهد.

من ذلك، أن غالب سكان مدينة تونس كانت لهم بضواحيها حدائق جميلة وبساتين يانعة، يخرجون اليها بعيالهم، زمن الصيف والخريف.

وكانت عندهم مدة عيدي الفطر والأضحى خمسة عشر يوما، تغلق أثناءها الأسواق، ويستعماون فيها أنواعا كثيرة من الأطعمة الفاخرة، والحلويات اللذيذة - ومنها : المقروض. واعتادوا أكل الدجاج والدويذة في التاسع من شهر محرم الحرام، والتوسع في النفقة من أطعمة وفواكه في العاشر منه - أي يوم عاشوراء الذي كانوا يخرجون فيه زكاتهم.

وكانوا يحتفلون بالمولد النبوي الشريف، ويتناولون الأطعمة الفاخرة أثناءه، ويحيون ليلته بتلاوة الأشعار والأناشيد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعظمون ليالي النصف من رجب الأصب، والسابع والعشرين منه، والنصف من شعبان الأكرم - وكذلك شهر رمضان المعظم حيث يتلون ختم القرآن الكريم في لياليه في غالب الجوامع والمساجد: (1)

- ومن ذلك، أن مدينة القيروان سارت في طريق البؤس، بعد أن فارقتها أكثر أبنائها، وأصبح أكثر سكانها من الفلاحين البدو الذين لجأوا إليها. ثم رجع إليها بعض أبنائها، ولكنها ظلت على بؤسها، وجار الأمراء عليها، فانشقت حسبما سبقت الإشارة إلى ذلك. وجعلت منها (فرقة الشايبة) عندما كان يتزعمها (الشيخ عرفة) مركزا دينيا وسياسيا نشيطا، وتمكن أتباعها من الانتصار على الأمير الثاني والعشرين (الحسن بن محمد)، وبقوا على انشقاقهم إلى أن حوربوا وهزموا وفروا حسبما سنوضحه. وإثر ذلك أخذت تضمد أجراحها، وأخذ عدد سكانها في الزيادة.

- ومن ذلك، أن مدينة المهدية كانت محظوظة، إذ كان ولاتها يختارون في الغالب من بين أبناء الأمراء. وكانت الحياة بها مزدهرة، بفضل نشاط القرصنة المستمر الصادر

عنها، الذي أدى الى مهاجمتها مرارا من طرف عدة مغيرين،
فقاومت -حسب استطاعتها-.

وعندما احتلها الاسبان عاثوا فيها فسادا وقتلا وتخريسا،
وأحرقوا أكثر معالمها الأثرية - ومن بينها : جامع عبيد
الله المهدي. فقد هدموه، وقتلوا وأحرقوا من كان فيه من
الدراطين، وردموهم، حسبما شهدت بذلك الجماجم
والعظام التي وقع العثور عليها أخيرا، أثناء القيام بتجديد
بنائه. ومن جراء ذلك الاحتلال قاسى أهلها الأمرين الى أن
تخلصت البلاد من الاسبان فنهضت من كبوتها.

- ومن ذلك : أن مدينة بنزرت كانت أحوالها راكدة
على الرغم من نزول بعض مهاجري الأندلس بها وبناء
ضاحيتهم فيها. واتخذتها حاملة فرنسية جنوية هدفا، ولكنها لم
تنجح وعجزت على الاستيلاء عليها. وكانت معقلا للقراصنة
ونقطة انطلاق نحو صقلية وإيطاليا، وتجمع بها في وقت ما
عشرون ألف أسير نصراني. وخضعت لخير الدين باربروس،
ثم احتلها الاسبان ووضعوا حامية بها، وخربوا حصونها، ثم
أعادوا بناءها، وشيدوا قلعة أسموها « قلعة إسبانيا » ونال
السكان منهم ما نال غيرهم من العسف والظلم والطغيان، الى
أن انتصر الاتراك، فأخذت بلادهم تضمد أجراحها.

- ومن ذلك، أن مدينة الدنستير انتقصت أهميتها بانتقال
مركز الحكم من الدهدية الى تونس. ورغم ذلك كانت

للأمراء عناية خاصة بها، وشوق عظيم لزيارتها. واهتموا بشأنها، فأدخلوا بعض التحسينات على رباطها، ورمدوا سورها، وبنوا باب الدرب فيه، وشيدوا بعض المساجد بها. ولم يفلت سكانها من عسف وظلم وطغيان الاسبان عندما احتلوها.

— ومن ذلك، أن مدينة سوسة امتازت بأن كان ولايتها من العائلة الحفصية المالكة. وكانت الحياة بها نشيطة، إذ انتشرت بها الثقافة وانتعش الأدب، وتعددت ديار الزهرة على شاطئها، وارتقت الصناعة، وانتظم أمر التجارة، وأنبع الاقتصاد، وندت صادراتها الى بلدان البحر الأبيض المتوسط — وبذلك كله استعادت زهرتها، وبلغت قمة مجدها.

وقد زارها الرحالة «أبومحمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني»، وتحدث في رحلته عنها قليلا، وعن أدبائها كثيرا، وأثبت أن الثياب الرفيعة تصنع بها، وأن المسافرين يقصدونها من الافاق.

وانشقت أيضا. ولم ينج سكانها من عسف وظلم وطغيان الاسبان عندما احتلوها.

— ومن ذلك، أن مدينة صفاقس كانت مركزا اقتصاديا له شأنه. وكانت مرفأ هاما يصدر منه الزيت. واشتهرت بصناعة النسيج. وكان السمك وسيلة من وسائل ارتزاق

أهلها. واحتلها الاسبان فلم يفلت أهلها من عسفهم وظلمهم وطغيانهم.

— ومن ذلك، أن مدينة قابس وصفها الرحالة « التجاني » في رحلته بأن مظاهر الانحطاط كانت بارزة بها، وأن أحوالها كانت سيئة.

— ومن ذلك، أن مدينة توزر امتاز أهلها بالتمرد. وكثيرا ما أجبروا الأمراء على امتشاق الحسام لردهم الى طاعتهم. وكثيرا ما اختل أمنها بما كان ينشب بين أهلها والقبائل المجاورة لها من قتال.

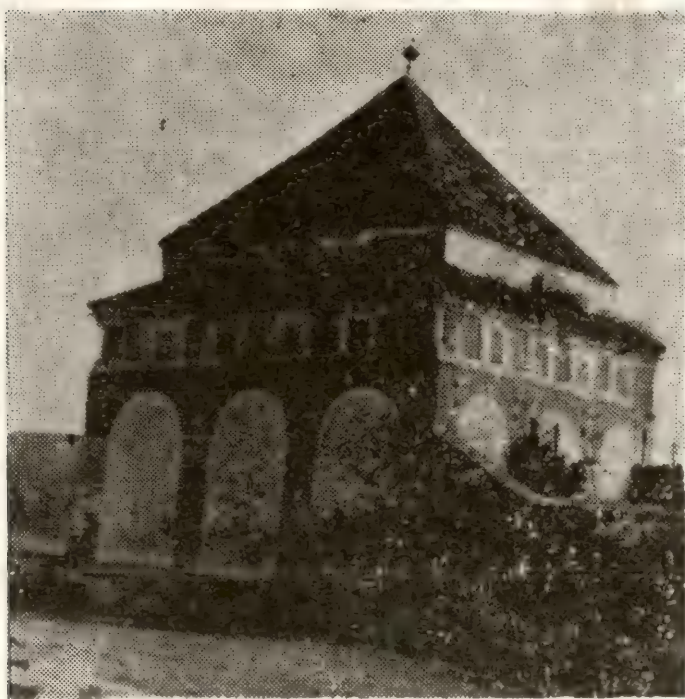
— ومن ذلك، أن جزيرة قرقة أضاعت بعض ما كانت عليه من الخصب، تبعا لضعف موارد أبنائها — إذ لم يتمكنوا من نفع الدولة بمواهبهم في ميدان الأسطول.

وقد هاجمها الاعداء — ومنهم الصقليون — ثلاث مرات، فقاسى أبنائها من جراء ذلك الأمرين. ثم احتلها الاسبان، واضطهدوا أبنائها الى أن انتصر عليهم الأتراك، وأصبحت البلاد تحت الحكم العثماني.

— ومن ذلك، أن جزيرة جربة كانت — في المدة الأولى من هذا العهد — تحت سلطة الدولة الحفصية، يتداول على تسيير شؤونها ولاية من قبلها. ثم جدت بها حوادث كثيرة سبق لنا إثبات بعضها مع آثار الاسبان التي بقيت بها،

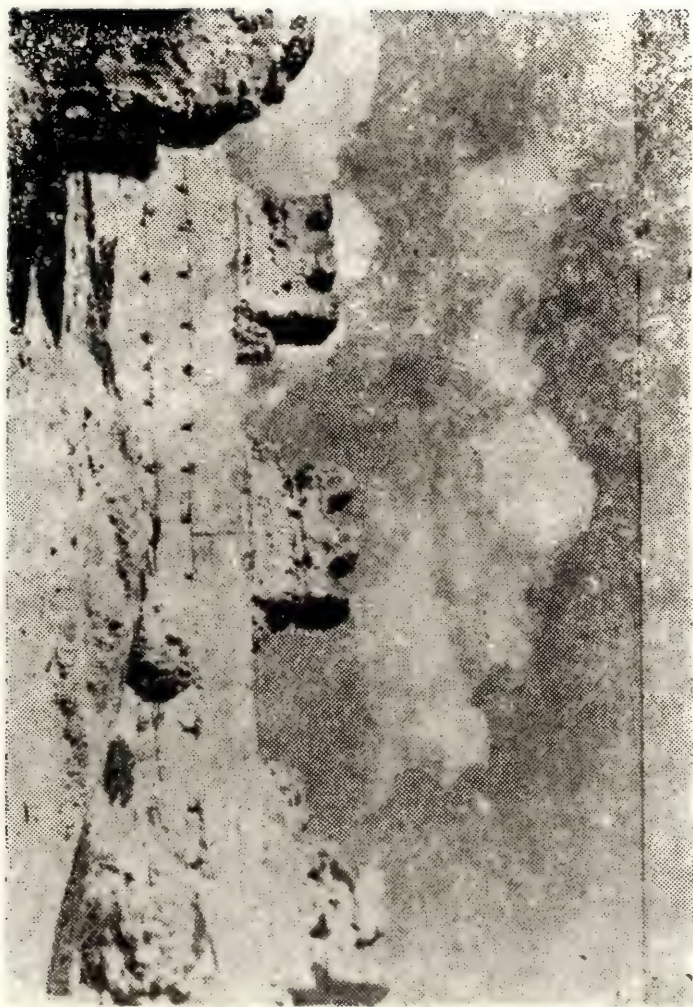
والتي نضيف إليها أثرا آخر للأتراك، وهو جامع ذو منارة
مستديرة الشكل لا يزال قائم الذات بحومة السوق، ويعرف
بجامع الأتراك.

والجدير بالذكر، أن الحياة الاجتماعية تشمل فضلا
عما تقدم — ما يتعلق بالمرأة، والبريد والصحة والأمن، وقد
خصصنا لذلك الفصلين المواليين.



قبة زاوية الشيخ قاسم الجليزي

المر حصن حفص بن نويس



المرأة

نهضت المرأة عما كانت عليه وأصبح حظها موفورا، ويرجع فضل النهوض بشأنها إلى الأميرات الحفصيات، اللاتي كان لهن الحظ الأوفر والسعي الأكبر في تشييد المدارس، التي انتشر بسببها التعليم للبنين والبنات، وراجت سوق العلم والأدب. ومنها :

1) مدرسة التوفيق - التي لا تزال موجودة بحي معقل الزعيم بتونس. وكانت أول مدرسة مستقلة، أسستها على نفقتها الأميرة (عطف) زوجة « أبي زكرياء يحيى » مؤسس الدولة. وقد رصع ذكرها أمير شعرائنا المرحوم محمد الشاذلي خزندار بقوله :

ان غاب شخصك يا ذات الجلال فما
غابت مآثرك البيضاء اياديها
في تونس ظهرت اولى المدارس عن
يديك تستمطر الرحى لبانيها

مرت بها الناس اجيالا وذكرك فى

افواهها يتفشى بالدعا فيها —

(2) والمدرسة العنيفة — التي لا تزال قائمة الذات بنهج عنق الجمل بتونس. وقد أسستها على نفقتها الأميرة (فاطمة) شقيقة الأمير الحادي عشر « أبي بكر بن أبي زكرياء ».

وقد تعزز جانب هاتين المدرستين بمدارس أخرى أسسها الأمراء، وسبق ذكرها، وقامت جميعها بأكبر قسط في تكوين طلبتها تكويناً جامعياً.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد ساعد على ترقية مستوى الحياة العائلية في أوساط الأمراء وأقاربهم، وفي أوساط الذين كانت لهم صلة بهم : أمهات وزوجات أكثر الأمراء اللائي كن نصرانيات وجلبن معهن كثيراً من التقاليد الطيبة، وأساليب العيش والتربية والتهديب، ودخلن في الاسلام عن طيب نفس، وأبدلن أسماءهن، ومن بينهن والدة الأمير التاسع عشر « أبي عمر عثمان » التي كان اسمها (مارية) فصار (مريم).

يضاف إليهن عائلات أحوال ذلك الأمير — وهم نصارى وفدوا عليه لتهنئته بتقلد الامارة، فأُنزلهم بالعاصمة بمساكن عرف باب حومتها باسم (باب العلوج)، ولا يزال معروفاً بذلك إلى اليوم.

وفضلا عن تلك العوامل فان التونسيات تعلمن عن نساء مهاجري الأندلس : تدبير الشؤون المنزلية، وكيفية إعداد كثير من الأطعمة، وصنع أصناف عديدة من الحلويات، ونقلن عنهن كثيرا من التقاليد والصناعات، وأساليب تربية الأبناء.

— وتمخصص عما تقدم، وعن تعدد المعاهد التي بفضلها عمت المعرفة، وازدهرت الثقافة : الاهتمام بتعليم البنات تعليما منزليا وصناعيا. وبفضله انتشرت مدارس عرفت باسم (دار المعلمة) بالعاصمة وعدة مدن.

وكانت تقع بالمنازل حيث تقوم صاحباتها بدور معلمات، فتولين في جملةهن : تلقين البنات اللاتي تترددن عليها نصيبا من القرآن الكريم، والمبادئ الدينية، — وتدريبهن على الشؤون المنزلية وعلى مختلف الصناعات — ومنها : الغزل، والتشبيك، والفصالة، والخياطة، والتطريز.

— وبفضل ما سبق تعداده، تطورت الحياة العائلية. ولا بدع، فعند المرأة التونسية المرونة والاستعداد للتطور ونشره ما ليس عند غيرها !

لكن ذلك لم يؤد بنساء العاصمة والمدن الى السفور. إذ كنَّ يلازمن الديار، ولا يارحنها الا بحجاب، وصحبة

محرم، وغير متبرجات. أما نساء البادية فكن يخرجن سافرات.

ويضاف الى ذلك التطور: الباع المديد الذي اكتسبته المرأة في ميدان الأدب. ومن دلائله: أن أحد رجالات ذلك العهد - وهو الرحالة (التيهاني) - أثبت في رحلته قوله : « إن لأهل تونس في الأدب باعا مديدا، فلم يكن منهم من لا يقول الشعر حتى النساء والصبيان ».

وأنتج جميع ذلك : ظهور بعض النساء، اقترنت حياتهن بجلال الأعمال، فكن أفذاذا، وعظمت شهر نهن لقلّة عددهن - ومن بينهن :

1) خديجة المعافري - وتعرف باسم خدوج الرصفية، نسبة الى مكان قرب المهدية يعرف اليوم بـ(الشابة).

وقد اشتهرت بأدبها وفصاحتها، ورقة شعرها، وبتربسها المماثل لترسل حذاق المترسليين.

ومن نواذر شعرها : ما جادت به قريحتها إثر تكدير صفو حب ربط بينها، وبين شاب شاعر ظريف يدعى « أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله »، بعد أن اتضح أمرها، وذاع خبره، واشتدت الغيرة بوليها - أخيها الأكبر - متأثرا بأقوال بعض الوشاة، فلم يقبل لأبي مروان طلبه يد « خديجة » وأبعده.

ومنه هذه الايات :

فرقوا بيننا فلما اجتمعنا
مزقونا بالزور والبهتان
ما ادى فعلهم بنا اليوم الا
مثل فعل الشيطان بالانسان
لهف نفسى عليك بل لهف نفسى
منك ان بنت يا « ابا مروان »

ومنه هذه الايات - وقد ضمتها رسالة بعثت بها
الى « وليها » تسترل بها العطف منه :

اخي الكبير وسيدى ورئيسى
ما بال حظى منك حظ بخيس ؟
ابغى رضاك بطاعة مقرونة
عندى بطاعة ربى القلوس
يا سيدى ما هكذا حكم النهى
حق الرئيس الفرق بالمرؤوس
واذا رضيت لى الهوان رضيت
ورايت ثوب الذل خير لبوس

(2) السيدة المنوبية - عائشة بنت عمران بن الحاج سليمان.
ولدت حوالي سنة 589 هـ = 1193م. بقرية « منوبة » من
أحواز العاصمة، بالناحية الغربية.

نشأت هنالك، وحفظت القرآن الكريم. ثم التحقت
بالعاصمة حيث أخذت تشتغل بخدمة الصوف وغزله، وتنفق
ما تحصل عليه من ذلك في معاشها وفي التصدق.

واقصت بالشيخ «أبي الحسن الشاذلي» وتلفت عنه
(الطريقة الشاذلية). واشتهرت بالعبادة والصلاح والزهد
والخيرية والحنان.

وتوفيت سنة 665 هـ = 1266 م.، ودفنت بجبل الزهور،
بالحي المعروف الآن باسمها حيث توجد زاويتها - وذلك
في مدة الأمير الحفصي الثاني «محمد المستنصر بالله».

وروي أنها ختمت في حياتها «القرآن الكريم» 1520
مرة، وأن آخر ما سمع منها عند احتضارها قوله تعالى :
«إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

(3) زينب التجانية - بنت أبي اسحاق إبراهيم.

يرتبط نسبها بالرحالة «التيجاني» الذي أسلفنا القول
عنه، وعن رحلته، وعن والده. وهي من أديبات العهد الحفصي.
واشتهرت بنبوغها في القريض البديع. واتخذ شعرها دليلاً
على معرفتها بقواعده، وعلى تمكنها من الأدب تكملاً
صحيحاً، وعلى أنها ذات خيال واسع.

ومنه قولها ملفزة فيه اسم حبيبها «تديم» :

يقولون لى هذا حبيبك ما اسمه ؟

فما استطعت افشاء وما استطعت اكنم

فقلت اسمه ميم وحرف مقلم

فهذا اسم من اهوى - فديتكم - افهموا

ومنه قولها من قصيد في وصف شعر :

إذا اسدلت منه عليها ذوابة
كفصن اراك عانقته اراقم
إذا نزعت عنه الملابس اسح
اثبت طويل فهو يستر جسمها
كان الصباح ارتاح من خوف طالب
بئار فالوى بالدجى يتكتم



جانب من زاوية الشيخ احمد بن عروس بتونس

البريد والصحة والأمن

— لم تتحسن حالة البريد عن ذي قبل، بل بقي شأنه ضعيفا وأمره مضطربا. واقتصر الأمراء على توجيه بريدهم بواسطة السعاة المشاة — أي أعوان البريد الرسمي — وهم رجال خفاف تعودوا المجري والصبر. يمتطون خيولا ممرة عند الاستعجال، ويحملون البريد في حقائب أو أكياس من جلد لتسليمه الى المرسل إليه.

وبجانب ذلك يوجد البريد الحر، الذي يتولى أمره أصحاب قوافل التجارة، ويحمل الرسائل الخصوصية والمتاع، والاموال وغيرها (1).

— وفي ميدان الصحة، كانت توجد عدة مرستانات — أي مستشفيات : بالعاصمة، وبالمدن الكبرى — كالقيروان، وسوسة، وصفاقس — وذلك منذ عهد الدولة الأغلبية.

(1) تونس عبر التاريخ - ص . 220 .

ومن المحتدل، أن مرستان سوسة كان يحتل المحل الذي لا يزال معروفا بهذا الاسم في حي « بين الفهاوي ». وبصرف النظر عن المحل، فإن مرستان سوسة قد أعدت لمعالجة عدوم المرضى في العهد الحفصي، حسبما جاء بصفحة 50 من كتاب ورقات - 1 - .

أما مرستان العاصمة، فالظاهر أنه اندثر - بدليل أن المؤرخين يعتبرون المرستان الذي شيد بها في هذا العهد أول مستشفى. (1).

وكان عدد الأطباء كبيرا. وقد تخرجوا من المدرسة الصقلية والمدرسة الأندلسية. وكان لهم أمين لدى البلاط كثيرا ما استدعي من طرف ملوك فرنسا ليعالج مرضاهم - (تونس عبر التاريخ - ص. 205).

- أما الأمن، فكان يسهر على نظامه مأمور. وكانت مهامه بالعاصمة منوطة بعهدة مشائخ الأرباض، ليقوموا على خفارة المدينة ليلا بعد أن تغلق أبوابها، تعاونهم جماعات من السكان تتناوب العمل فيما بينها.

وكان أمره خارج العاصمة منوطا بعهدة الولاة والعمال

(1) شيدته الامير أبو فارس عبد العزيز - ص . 122 تاريخ ابن أبي الضياف - ج . - 1 - .

الذين يعتمدون على مشايخ البلدان ورؤساء القبائل. أما سواحل البلاد، فلها حراس يبلغ عددهم عشرة آلاف.

وكان للأسواق أينما وجدت - أي بالعاصمة أو خارجها، حراس يتولون غلق أبوابها، ويسهرون على البضاعة الموجودة بها.

ومن دلائل انتشار الأمن بالبلاد ما حوته تعليمات كتابية، مؤرخة في سنة 850 هـ. = 1446 م.، أعطتها بلدية (فيورنزا الإيطالية) إلى مبعوث أرسلته إلى الأمير التاسع عشر (أبي عمرو وعثمان) ليتوسل إليه كي يرجع إليها أسيرين وقع القبض عليهما عندما شاركا في غارة من غارات القراصنة. (1)

وجاء في تلك التعليمات ما يلي : « واذكر لحضرة الملك، بأن (فيورنزة) تعلم - منذ عهد بعيد عن طريق تجارها - إنصافه، وحلمه الواسع، وأن المسافرين والتجار يلقون في بلاده من الأمن ما يجعل المسافر يعبر المناطق البعيدة عن الحضارة والصحاري، دون أن يهدده أي خطر، ولو كان يحمل الذهب والحجارة الكريمة ».

(1) عن ماس لا تری - البحوث التربوية - الكراس - 1 - .

الفصل - 11 -

الحياة الاقتصادية

تشمل الحياة الاقتصادية مبادئ الصناعة، والفلاحة -
والتجارة.

- ففي الميدان الأول انتشرت الصناعات بالعاصمة
وبمختلف المدن - ومنها : صناعة الصوف أي حياكته،
وصبغه، وصنع اللفة، والبسط، والشواشي، وغيرها منه -
وصناعة الجلد أي دبغه، ونقشه، وزخرفته، وصنع البلغة،
والشبرلة، والسروج، منه - وصناعتا عصر الزيتون، وصنع
الصابون - وصناعة الحلفاء أي خفرها، وصنع الشوامسي
والسلال وغيرها منها - وصناعة الخشب أي اللوح، ونقشه
وصنع الاثاث وغيرها منه - وصناعة البناء، ونقش حجر
الكذآل، وما الى ذلك، - وصناعات العطورات، والشمع
والزجاج، والفخار، والحديد، والغرايل، وصياغة الذهب
والفضة - وصناعة الجليز التي تقدمت باحداث تزويقات
فيه، وبصنع نوع بارز الزخرف - وصناعة الثياب الرفيعة
التي اشتهرت بها مدينة سوسة.

ونتيجة للاهتمام بشأنها جادت المصنوعات ودقت :
وراجت، بالرغم عن طابعها التقليدي - إذ هي في معظمها
يدوية ومعتمدة على منتوجات البلاد الطبيعية.

وقد أحدثت لها الأسواق - ومنها بالعاصمة : سوق
الحدادين، وسوق صانعي السلال، بالإضافة الى الأسواق
الأخرى التي لا تزال موجودة ومحتفظة بأسمائها الى
الان - ومنها : أسواق الشاشية، واللفة، والدباغين،
والبغجية، والغرابلية، والسراجين، والنحاس. -

- وفي ميدان الفلاحة، عني الأمراء بإنشاء البساتين
البانعة حول قصورهم الأنيقة التي سبق الكلام عنها. وأحدث
السكان الأجنة الجميلة بدنتزهااتهم، حول العاصمة. وأقبل
سكان الأرياف على الفلاحة، وعنوا بأمرها، فارتقت وتقدمت،
على الرغم من حوادث الشغب، ومن تعدد الثورات. ومن
ذلك : غراسة الزياتين، وزراعة الحبوب، وقربية الدواشي -
أي الابل والغنم والبقر، واستثمار النحل لإنتاج العسل والشع،
وتربية الدواجن بأنواعها. وازدهر الصيد البحري
حيث استثمر بصفة منظمة بالتعاون مع شركات أجنبية -
ومن ذلك صيد التن، واستغلال المرجان والاسفنج.

- أما التجارة فقد اشتد اهتمام الأمراء بشأنها، وبذلوا
مجهودات لترقيتها. إذ عملوا على ترويج منتوجات البلاد

في الداخل بتنظيم أسواق خاصة للحيوانات — منها بالعاصمة :
رحبة الغنم، وبطحاء الخيل — وبأحداث أسواق بتونس :
للزيت، وللخضر، وللحبوب، وللنحاس — وبتشيد أسواق
حول جامع الزيتونة — ومنها : سوق الشماعين، وسوق
القماش، وسوق العطارين الذي بلغ عدد دكاكينه السبعمئة.
وكانت الأسواق التجارية بالبلاد نوعين : يومية وأسبوعية.

وبالإضافة الى ذلك، نظم الأمراء التجارة الخارجية :
في البر بواسطة القوافل — وفي البحر، بواسطة الأسطول
التجاري الذي جددوه. وعقدوا المعاهدات التجارية مع
دول كثيرة. وكان يسبق عقدها تفاوض لا يبعد كثيرا عن
المفاوضات التي تجري في عهدنا الحاضر بهذا الشأن.

وبفضل تلك المعاهدات، التي كانت بعض الدول
المتعاقدة تتمتع بمقتضاها بمعاملات خاصة، أخذت التجارة
بأسباب الرقي، وأصبح اتصال تونس بأروبا مستهرا، وتوطدت
العلاقات التجارية بالخصوص مع : فرنسا — والأندلس —
وصقلية — وجنوة — والبندقية. وكان التجار الأجانب يأتون
للمعاملات التجارية، فيجدون من تجار تونس عوناً على
صفقاتهم الربحية.

ونتيجة لما تقدم. وبفضل موقع البلاد الجغرافي الذي
جعلها ملتقى للقوافل البحرية، وجلب الى موانئها كثيرا من
القراصنة انتشر بينهم فداء الأسرى وبيع العلوج بالعاصمة في

سوق البركة المعد اليوم للصياغة، ازدهرت التجارة، وعادت
المعالم المستخلصة من طرف مراكز الجمر ك على الصادرات
والواردات بالخير العميم على خريفة الدولة، فضلا عن
الغنائم والسبايا التي تنجر للأمراء من القرصنة مقابل رعايتهم
للقرصنة:

والملاحظ، أن القوافل التجارية البحرية أصبحت وسيلة
لتعريف القارة الأوروبية بالحضارة الشرقية، فضلا عن
قيامها بنقل البضائع. وأن المعالم المشار إليها كانت تبلغ
العشر من ثمن البضائع، إلا أن بعض الدول كانت
تعامل معاملة خاصة بمقتضى المعاهدات المعقودة معها.
يضاف الى ذلك أن جالياتها بتونس كان لها نواب في مراكز
الجمرك يعرفون بالشهود أو بالمحاسبين.

ومن صادرات البلاد: الجلود، والصوف، وبعض
المنسوجات، والحبوب، والزيت، والتمر، والعسل،

والشمع: والتن، والاسفنج، والدرجان، والملح، ومعدن
الرصا، والبوطاس، وبعض الأسلحة. ومن وارداتها:
الذهب، والنضة، والأسلحة، والخشب، والورق، وأنواع
من الأقمشة، والحجارة الكريمة.

وقد ساعد على رقي التجارة وبلوغها الى تلك الدرجة،
بالإضافة الى العوامل التي سبق تعدادها: الاتصال المباشر،

المنجر عن إقامة التجار الأجانب بالعاصمة حيث تمكنوا من تنظيم شؤونهم التجارية، وتعلموا طرق المعاملات، في جو من الثقة المتبادلة كان يسود علائقهم بالتجار التونسيين، زيادة عن وجود شركات منظمة لتبديل العملة وتسعيرها، ومؤسسات للقروض وتوزيع الأرباح وضمان البضائع.



جامع الاتراك بجزيرة جربة

الحياة الدينية

الدولة الحفصية هي دولة تفرعت عن الدولة الموحدية، المنبثقة عن حركة دينية، بنيت على تعاليم إصلاحية استمسك بها الأمراء الحفصيون.

وقد أخذت تلك التعاليم من تعاليم حجة الاسلام الامام الغزالي السنية الإصلاحية، التي تعتمد على القواعد الدينية السلفية المحافظة - ومنها : التشدد في الدين، وفي العقاب على البذاءة - ومقاومة البدع.

ولم ينفر السكان تلك التعاليم، لأنها لا تتنافى مع المذهب المالكي الذي يعتنقونه. وبذلك استطاع الأمراء الحفصيون أن يقرروا هذا المذهب إقراراً نهائياً في البلاد. واستطاع رجال الدين أن يوفقوا بين العلم والعمل، وأن يجعلوا الدين الاسلامي متماشياً مع ظروف الحياة المتطورة، وفي خدمة رفاهية الفرد والمجموعة البشرية التي تعتنقه.

أما المذهب الحنفي، فكان يعتنقه حنفي وحيد بالبلاد -
وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عثمان الزناتي -
حسبما أثبتته «أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني» في
«رحلته».

هذا ويضاف الى استمساك الأمراء الحفصيين بتلك التعاليم :
احتفاظهم باجلال الامام المهدي « ابن تومرت » الذي كان
دعا اليها، واتخذها شعارا للدولة الموحدية التي أعلن تأسيسها،
وباحترام خلفائه.

من ذلك، أن أئمة المساجد في عهدهم حافظوا في
الخطب الجمعة على الترضية عليه، والثناء على دعوته -
وأن الأمراء حافظوا على نقش اسمه، مع أسماء الخلفاء
الموحدين الذين تداولوا على الحكم بعده، في سكتهم.

وتبعاً لذلك، اهتم السكان - بتشجيع من الأمراء -
بالاعياد والمواسم الدينية التي سبق تعدادها، وبشهر رمضان
المعظم، وبالمولد النبوي الشريف، وأصبحوا يحتفون بها،
ويحيون ذكراها، ويقيمون الاحتفلات الشيقة بمناسبةاتها.
واشتد الاقبال على تعلم الفقه وما إليه من علوم الدين، وعلى
تأسيس الكتاتيب والمدارس. وعظمت العناية بتشيد الجوامع
والمساجد بدافع ديني - ومن ذلك :

(1) جامع القصة بتونس - ويمتاز بالمقربص الجبسي الوجود

تحت قبة محرابه. وبزخرفة صومعته من الخارج زخرفة
تسطيرية — أي ذات تساطر نائثة — فضلا عن كونها أجمل
وأفخم وأبهى صوامع العاصمة، وعن كونها مربعة الشكل
وتناطح الأفلاك بارتفاعها.

وقد ابتناه الأمير « أبو زكرياء يحيى » قبل تأسيسه للدولة
الحصية — أي عندما كان واليا، ونقش اسمه على صومعته.
ودشنها بنفسه إثر تمامها، إذ أذن فيها لصلاة صبح سابع رمضان
سنة 633 هـ. = جوان سنة 1235.

ونظرا لارتفاع موقع هذا الجامع الذي هو أعلى بقعة
بالعاصمة، وارتفاع صومعته، اختير فيما بعد لنشر علم أبيض
فوق صومعته ينبه بقية جوامع العاصمة ومساجدها بدخول
وقت الصلاة. ولا يزال هذا الجامع قائم الذات بصومعته،
وأصبح تحفة رائعة بفضل الإصلاحات الجوهرية التي أجريت
عليه في السنوات الأخيرة.

(2) جامع التوفيق أو جامع الهواء بتونس — وهو لا يزال
موجودا في ساحة معقل الزعيم. وقد قلد على جامع الزيتونة
في الجملة والتفصيل، إلا أن قبة جاءت مشوهة. وهو من
مآثر الأميرة (عصف) زوجة الأمير « أبي زكرياء يحيى ».
أسسته في مدة إمارة ابنها الأمير الثاني « محمد المستنصر
بالله » سنة 650 هـ. = 1252 م. — .

3) جامع الحلق بتونس - وهو موجود حاليا في حي باب الجديد، ومن مآثر أمة زنجية شيدته بـ ن بيع أسورة ذهبية - وذلك في مدة الأمير الثاني « محمد المستنصر بالله ».

4) جامع الزيتونة البراني أو جامع الزرارعية بتونس - وهو موجود حاليا خارج باب البحر بشارع المنجي سليم. وقع تشييده - مكان فندق كانت تباع الخمر فيه - في مدة الأمير الرابع « أبي اسحاق إبراهيم الأول » سنة 681 هـ. = 1282 م. - وقد اغتصبه الاسبان عند احتلالهم للعاصمة، وجعلوه مستودعا ل ذخيرتهم.

5) جامع التبانين أو جامع النفاثة بتونس - وهو لا يزال قائم الذات بالتبانين من ربنس باب السويقة، ومن مآثر الأمير التاسع عشر « أبي عمرو عثمان ».

6) مسجد الأخوات بسوسة - ويقع بجانب القصبة. ويمتاز بكون واجهته الداخلية محلاة بجهاز زخرفي منقوش على الحجارة.

وبدافع الدين أيضا، عني الأمراء بتحسين أو ترميم ما كان موجودا من الجوامع والمساجد التي يبلغ عددها بالعاصمة قرابة المائتين - من ذلك :

- تجديد أبواب جامع الزيتونة بأبواب من عود الساج.

- إجراء تحسينات كبيرة في جامع عقبة بمدينة القيروان،

وتشييد مدخله الشرفي الضخم المعروف باسم « باب ريحانة »
— زيادة مجنبات في الناحية الجوفية بالجامع الكبير بالدنستير.
وبنفس الدافع أيضا، اهتم الأمراء بما يتصل بالماء.
فأحدثوا بالعاصمة صهريجا كبيرا في الدصلى خارج باب المنارة،
ومبضاة وسقايات ومصاصة « وهي سبيل يمدح فيها الانسان
الماء من صنوبر » في سوق العطارين، وسقاية شرقي جامع
الزيتونة وسبالة بأسفله. وأنشأوا عدة مصانع للماء في الطرق
الموصلة للعاصمة.

— وفي المدة الأخيرة من هذا العهد ، ضعف نشاط
النهضة الثقافية نتيجة لما تخللها من ثورات، وتناحر
وحوادث واضطرابات، بالرغم من حزم بعض العلماء
وعملهم الايجابي وتجديدهم. فأخذ المرابطون وأصحاب
الطرق الصوفية يسيطرون على الدين يوما بعد يوم، فسجلت
لهم كثير من المزايا الأخلاقية، بالرغم عن انتشار الاعتقادات
الدشطة أحيانا في بركة بعضهم. ومن أبرزهم :

(1) الشيخ نور الدين أبو الحسن الشاذلي — وأصله من
بلاد الريف بالمغرب الأقصى حيث ولد ببلدة (غمارة) سنة
593 هـ. = 1196 م. — .

قام بفريضة الحج، ثم التحق بمدينة (بغداد)، وتلقى
العلم عن شيوخها، والتصوف عن الشيخ (جنيد)، وبذلك

صار عالما بفنون اللغة والدين، وعارفا بعلم التصوف، وقوي الإيمان، وفصح اللسان، وحسن البيان.

ومن هنالك رجع الى بلاده، والتحق بشيخ صوفي - هو محمد عبد السلام بن مشيش، ولازمه مدة، وأخذ عنه. ثم التحق بالبلاد التونسية، وأقام قرب العاصمة، بقرية (شاذلة) التي نسب اليها وصار يعرف بـ(الشاذلي). ثم انتقل الى مدينة تونس، حيث تعرف بالشيخ الصوفي أبي سعيد الباجي، ولازمه، وانتفع به كثيرا. ثم ذهب الى مدينة زغوان ورابط بها، ورجع منها الى العاصمة حيث رابط بالمغارة القائمة بجبل الزلاج.

وأثناء مرابطته، تفرغ لتربية المريدين، فشاع أمره، وكون ممن التف حوله أتباعا ومريدين كثيرين، وظهرت كراماته.

ثم التحق بمصر، وبقي على اتصال بمدينة تونس، ثم رجع اليها وقضى مدة بها. ثم سافر الى مصر حيث استقر الى أن توفي ودفن بها سنة 656 هـ. = 1258 م. -.

وقد عُرِفَ طريقته في التصوف بـ(الطريقة الشاذلية) - ومن أصولها : خوف الله، والتمسك بالسنة، والتسليم لإرادة الله، واحتقار العالم.

وبالغ في الدرس حتى فقد بصره بالمطالعة. وهو الذي جلب الى البلاد التونسية (القهوة) من اليمن، ليتناولها

مريدوه، فتمنع عنهم النوم. ويتمكنون من قضاء السهرات في العبادة والذكر. ولذلك عرفت القهوة لعهد غير بعيد (الشاذلية) وكان العامة يقسمون بها.

وشيخه ببغداد (جنيد) - أبو القاسم الحزاز أو الزجاج - هو زاهد بغدادي، حج الى مكة ثلاثين مرة على الأقدام، وعرف بسيد الطائفة الجنيدية وطاوس العلماء. ومن أقواله : « التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى، وأصله الصرف عن الدنيا » و « الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار ».

أما المقام الشاذلي الموجود حالياً على قمة جبل الزلاج بتونس، والمجاور للمغارة التي كان رابط بها الشيخ أبو الحسن الشاذلي، فقد شيده في عهد ما قبل الحماية الحسيني، الوزير (مصطفى خزندار) ترضية منه للرأي العام الذي كان إذذاك قوي الاعتقاد في الطريقة الشاذلية.

(2) الشيخ أبو سعيد الباجي - ولد سنة 551 هـ. = 1156 م.، قرب منوبة من أحواز مدينة تونس، بقرية (باجة القديمة) التي ينتسب إليها.

التحق بمكة المكرمة حيث مكث ثلاث سنين تلمذ أثناءها لعلمائها وقام بفريضة الحج، وانتقل في نهايتها الى بلاد الشام ورجع الى مدينة تونس.

وقد اشتهر بين الناس بالتصوف، وعرف بالصلاح والتقوى

والتفرغ للعبادة بصورة متواصلة. والتف حول مريدون كثيرون وأتباع عديدون كان جميعهم يترددون معه على منارة قرطاجنة، ويعتكفون فيها. وتوفي سنة 628 هـ. = 1230 م.. ودفن بجبل المنار، من الضواحي الشمالية للعاصمة، وشيد حول قبره مقامه الجميل الذي لا يزال قائم الذات.

(3) الشيخ أحمد بن عروس الهواري - ولد حوالي سنة 778 هـ. = 1376 م. بقرية المزاتين - بوادي الرمل من الوطن القبلي التونسي.

ارتحل صغيرا الى مدينة تونس، وأقام بها مدة كان يتردد أثناءها على مقام الشيخ (محرز بن خلف). ثم انتقل الى مدينة باجة، ومنها الى (ميلة) حيث تصدى لتعليم الصبيان. ثم سافر الى المغرب الأقصى حيث أقام وتجول مدة رجع في نهايتها الى مدينة تونس حيث لازم الصلاة بجامع الزيتونة، وشاع خبره، واشتهر بالتصوف. واعتبر من الصالحين الأخيار معتقدا ومهابا، وسمي سلطان المدينة، وكون أتباعا كثيرين. وطريقته متفرعة عن (الشاذلية)، وتعرف باسم (العروسية). وتوفي سنة 868 هـ. = 1463 م. -.

أما زاويته المدفون بها، والتي لا تزال قائمة الذات بالقرب من سوق العطارين، فقد شيدها له في حياته، وقبل ثلاثين سنة من وفاته، الأمير الحفصي الثامن عشر (محمد المنتصر).

وكان الناس يلتجئون إليها. وكان لها ولصاحبها مكانة عند الأمراء الحفصيين. ولازمها مدة أحدهم. وكانت إلى حد غير بعيد من المقامات التي يتبرك ملوك تونس بزيارتها : ليلة السابع والعشرين من رمضان، وليلة الدولد النبوي الشريف. وهي حاليا مقر لجمعية المحافظة على القرآن الكريم.

4) الشيخ قاسم الجليزي -- وهو من مهاجري الأندلس. وكان يتعاطى صناعة الزليج البارز الزخرف. واشتهر بالصلاح. وقوفي سنة 902 هـ. = 1496 م.، ودفن بزاويته التي ابتناها لنفسه بتونس. ولا تزال قائمة الذات، داخل باب سيدي قاسم، بساحة معقل الزعيم. ووصفت بأنها روضة من رياض الجنة، ثم خربت وتهدمت وضاعت، ثم جددت.

وهي تشتمل على قاعة مسقوفة بقبة عظيمة هرمية الشكل، من قرمد المخار الأخضر. وتنتج على بناء تحيط به أروقة أربعة وراها غرث -- وعلى مسجد متألف من ثلاث بلاطات عمقا، وثلاث مساكب عرضا، وبه محراب مؤلف من لوحات رخامية متوجة بأقواس مشرفة عليها نقوش وكتابات.

أما جدران الزاوية. فهي مكسوة بقطع الزليج الملون المزخرف بالتساير البارزة. وفي هذه الزاوية يوجد قبر الأمير الثالث والعشرين « أبي العباس أحمد الثاني ».

5) الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمران، الشهير باسم « بوراوي الفحل » - أصله من بلدة القلعة الصغرى. تلقى التصوف عن والده الذي كان ممن أخذوا عن الشيخ أحمد بن عروس الهواري. كان تقيا، عابدا، يلزم الخلوة والتهجد، واشتهر بالصلاح.

وقد قضى حياته بمدينة سوسة حيث توفي سنة 931 هـ. = 1524 م.، وشيدت حول قبره زاوية ضخمة بقلب المدينة لا تزال موجودة.

6) الشيخ أحمد بن مخلوف الشابي - نسبة لقرية (الشابة) المجاورة لمدينة المهدية، والتي ولد بها سنة 803 هـ. = 1400 م.

ارتحل الى العاصمة ، وقضى بها أعواما تلقى أثناءها دراسة متينة أصبح بفضلها مثقفا، وأخذ عن شيوخ التصوف ومن بينهم الشيخ أحمد بن عروس الهواري.

ثم رجع الى جهة المهدية، والتحق بالشيخ الصوفي « علي المحجوب » ، وأخذ عنه، ولازمه الى أن ظهرت له كرامات وتم له الفتح.

فالتحق بمدينة القيروان حيث اشتهر خبره، وكثر أتباعه، وتكونت منهم حوله (فرقة الشابية). وانتخب إماما، ومؤدبا،

وتزوج فأنجب أولادا كثيرين - أشهرهم : الشيخ محمد الأكبر - والشيخ عرفة - والشيخ أبو الطيب.

ولما شاع أمر طريقته الصوفية التي كان يبنها واشتهرت بـ(الطريقة الشاذلية)، لقي معارضة من طرف حاسديه. فانتصر عليهم أدبيا بفتوى استصدرها من قاضي القضاة الشيخ محمد الرصاع، إذ كانت محبذة لعقيدة طريقته - وتوفي سنة 887 هـ = 1482م.

فخلفه على رأس (الفرقة الشاذلية) ابنه الشيخ محمد الأكبر، وتوفي بعد ثلاثة أعوام - أي سنة 890 هـ = 1485م.

فتولى أمرها (الشيخ عرفة) وسجل لها ازدهارا لم تعرفه من قبل. إذ جعل من مدينة القيروان مركزا دينيا وسياسيا نشيطا، ومدينة منشقة. وتوكل على رأس أتباعه من الانتصار على قوات الأمير الحفصي الثاني والعشرين (الحسن بن محمد). فشجعه ذلك على البقاء على انشقاقه، وحاول أن يؤسس إمارة، إلا أن الظروف كانت شديدة. إذ تزايد عدد المعارضين - وأغلبهم من البدو - ونفروه، وتوفي سنة 949 هـ = 1542م.

فخلفه الشيخ (أبو الطيب)، وكانت البلاد يومئذ (محمية إسبانية)، وفي حالة فوضى وهيجان، وكان الأتراك الذين احتلوا الجزائر ينافسون الأسبان.

في ذلك الجو الرهيب، أخذت الدعاية والمعارضة تترايد ضد الطريقة الشاوية . وبذلك سقط شيخها في نظر أهل القيروان، وفقد لديهم احترامه وهيبته واعتباره، وما له من حق الولاء والطاعة . وأدى ذلك بهم الى الاستنجاد بالقائد التركي (درغوث باشا) الذي كان واليا بطرابلس، بعد أن انتزعها من الاسبان. فاستجاب لذلك، وقدم الى القيروان على رأس قوة عسكرية، وقتل الشيخ أبا الطيب، وفر الشاويون. فوقعت مطاردتهم، وتشتت شاملهم (1). وبعد أمد بعيد، تمكن بعضهم من الاقامة بمدينة قفصة حيث عرفوا بالاجرين، وتمكن الآخرون من الاقامة بالقرب من مدينة توزر حيث تكونت منهم قرية (الشاوية).

(7) الشيخ عامر بن الحاج سالم الذروغي - ولد حوالي سنة 920 هـ. = 1514 م. - . بقرية الساحلين الكائنة جنوبي مدينة سوسة على بعد عشرة أميال - وذلك في مدة الأمير الحفصي الحادي والعشرين « أبي عبد الله محمد ».

يرتفع نسبه الى جدي الاشراف : الامام علي بن أبي طالب، والسيدة فاطمة الزهراء - رضي الله عنهما.

ارتحل أحد أجداده الأولين من مكة المكرمة الى المغرب الأقصى، وتزوج هنالك، وكان من نسله ولد يدعى « إبراهيم ».

(1) سنة 966 هـ . = 1558 م .

وقد ولد ببلدة « مزوغة » فنسب اليها، وأصبح لفظ (المزوغى) لقبا له ولمن تناسلوا منه - ومن بينهم « سالم » والد مترجمنا الذي أدى - صحبة والديه - فريضة الحج وستي العذرة والزيارة، وبعد أن أقام مدة بأحدى ضواحي المدينة المنورة حيث توفيت والدته، ثم بالبلاد المصرية حيث توفي والده، رجع الى المغرب الاقصى حيث استقر بمدينة فاس مدة ارتحل في نهايتها الى البلاد التونسية. فأقام مدة بالعاصمة، ثم التحق بمدينة القيروان، ومنها سافر الى قرية الساحلين.

وهناك نزل عند الوالي الصالح الشيخ (نصر الشارف) ولم يلبث أن تزوج من ابنته « ريانة »، ثم توفي هناك وهي حامل، فولدت بعد وفاته ولدا سمي « عامر ».

فنشأ هذا الولد يتيما في كفالة خاله، وحفظ بزاوية جده القرآن الكريم. ثم انتقل الى مدينة سوسة، واتصل بالعالم والمفتي الشيخ (محمد الريغي)، ولازمه طيلة ثلاثة أعوام تلقى أثناءها عنه ما أصبح بفضلها مثقفا وفقها.

ثم ارتحل الى العاصمة، وقصد أحد شيوخ التصوف الولي الصالح الشيخ (أبا الغيث القشاش التونسي)، وتلمذ عليه مدة عشر سنين شهد له في نهايتها بالفتح، وأجاز له بث « الطريقة الشاذلية ».

ولإثر ذلك، استقل بالسكنى به محل خاص. وأخذ يث تلك الطريقة. فالتف حوله أتباع كثيرون. ومريدون عدليون. واشتهر بالزهد والتقوى والصلاح. وظهرت على يديه عدة كرامات.

ثم فارق مدينة تونس، وتجول في معظم أنحاء البلاد - وهو يث تلك الطريقة، الى أن استقر به المطاف بمكان قرب مسقط رأسه، يعرف باسم «هنشير الوحيشي».

وهناك ابنتى خلوة بمساعدة بعض الأتباع والمريدين، واتخذها مقرا له. فشاع خبره، وأصبح الناس من مختلف الجهات يزورونه ويتبركون به. ويأخذون عنه ما عرف بـ(الطريقة العامرية). وباعانتهم شيد حوشا وبيتا ومجسدا، ونزوح بالانسة «أم دلال» كريمة المرباط الشيخ أحمد بن محمد الرحاي - شهر بوزعينة. ثم تعددت كراماته، وازدادت شهرته، وصارت زيارات مريديه، من صفاقس والقيروان وجهة تالة، سنوية، وزيارات غيرهم أسبوعية - كل يوم خميس.

وتلقى عنه طريقته بعض المسؤولين في الدولة الحفصية، وقولى أحدهم تشييد زاوية له - وذلك سنة 970 هـ = 1562 م. وكانت البلاد إذذاك (محمية إسبانية)، ومدينتا سوسة والمنستير محتلتي من طرف الاسبان الذين لقي السكان منهم جورا وظلما وقهرا لا يوصف، حسبما سبق إثباته.

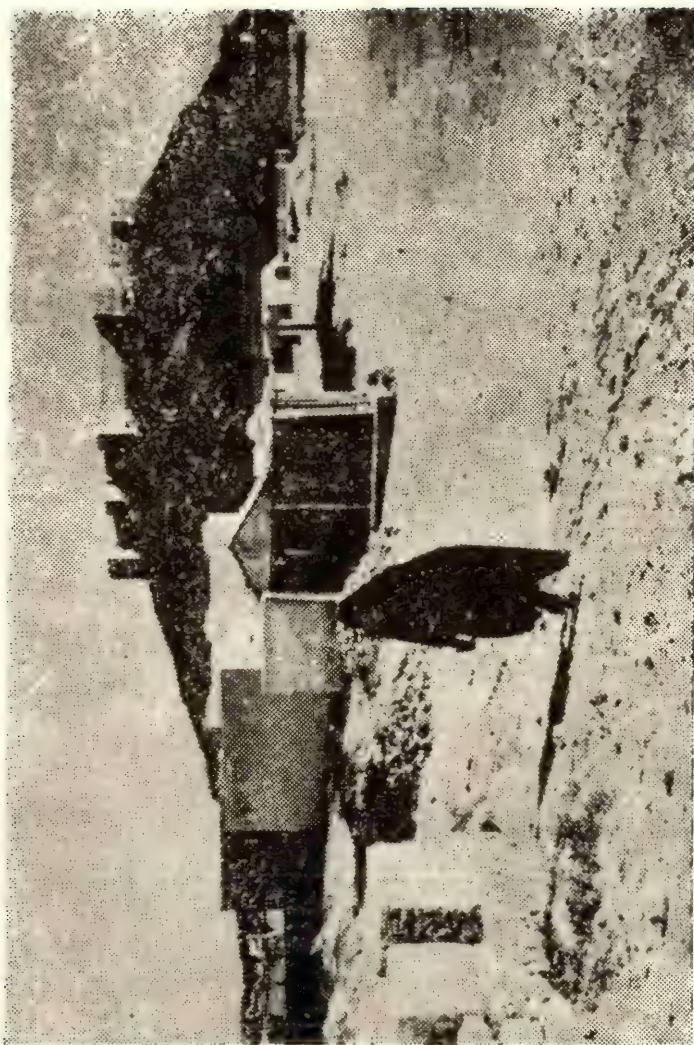
وقياما برد الفعل ضد الاسبان، كان الشيخ « عامر المزوغي » يث روح المقاومة الوطنية، وتمكن من قتل تسعة من الاسبان، وكون أفواجا من المقاومين. ولم يمض وقت طويل حتى أُطرد الاسبان، وسقطت الدولة الحفصية.

وفي العهد العثماني، شاع خبر نشاط الشيخ في ميدان المقاومة ضد الاسبان، وما بذله من الجهود، وبلغ صده مسامع حكام البلاد الجدد من الأتراك، فلقي حظوة ممتازة لديهم، وجددوا له زاوية فصارت تحفة رائعة.

وكان ذلك مجلبة للكثير من المتبركين بالشيخ ومحبيه، ومريديه، فاستقروا حول الزاوية، ومنهم، ومن أبنائهم. ونسلهم ومن ولده « نصر » وأبنائه، وأحفاده، ونسلهم، تكونت بلدة (سيدي عامر) حيث توفي الشيخ ودفن بزاويته - خلال سنة 1040 هـ. = 1630 م.

وقد ضمن « الشيخ مخلوف » كتابه « شجرة النور الزكية » ترجمة للشيخ جاء فيها : أن الشيخ الصالح الشهير الذكر، وصاحب الكرامات (عامر المزوغي) ممن أخذوا عن الشيخ « أبي الغيث القشاش »، وأن له زاوية كبرى بالقرب من قرية الساحلين بالبلدة المعروفة باسم « سيدي عامر »

اثر حصن اسبانی بقلیبة



سياسة الحفصيين

حظيت الدولة الحفصية بعز وسلطان ونفوذ لم يتسن لكثير من الدول، إلا أن الغالب عليها سوء الإدارة، لبعدها عن الصبغة العربية والحضارة الشرقية، ولتغلب الفكر البربري على رجالها ومدنيتها - علما وأنها الدولة البربرية الثانية، باعتبار « الدولة الصنهاجية » هي الاولى.

لذلك كان دورها تقليديا بعيدا عن الابتكار، وكانت سياستها العامة ضعيفة في مجموعها.

غير أن عصر أمرائها الأولين كان من عصور تونس الزاهرة. فقد عظم شأن دولتهم، وكانت البلاد في عهدهم أعظم وأخطر مملكة في العالم الاسلامي. إذ امتد أمرها، واتسع مجال ملكها، ومدت يد البيعة من المشرق والمغرب اليها.

ومرد ذلك الى أن أمراءها كانوا أقرب الى خلال الخير. إذ يتصرفون في حدود الدين، ويعتمدون على أحكام الكتاب والسنة، ويتباهون بالانحياز الى سيرة السلف الصالح، ويحضون

السكان على انباعهم، والافتداء بهم، والسير على منوالهم - سواء في التسليح بالايهان، والخوف من الله، أو في توطين النفس على الاحكام الشرعية والآداب الاسلامية، أو في القيام بفروض الدين وشعائره، والتخلق بأخلاقه، أو في التقشف في حياتهم، أو في حسن التصرف في أمورهم....

وبفضل تلك النفسية التي كانت تقود أولئك الأمراء. وقوة الوازع الديني الذي كان يسيطر عليهم، أنشأوا في العاصمة وغيرها المشاريع الجليلة والأبنية النافعة، التي سبق ذكر نتف منها، مما بقي أثره، ولم ينس خبره. ونفق في أيامهم سوق العلم، فبرز في ربوعه أعلام يفاخر بهم المغرب المشرق - حسبما تشهد بذلك مصنفاتهم.

وهكذا نهضت البلاد في جميع المجالات، وجلب مغنطيس الأمن والعدل الى الاقامة بها وفودا وجاليات اختلفت أجناسهم ونحلهم، فزادوا في عمرانها، وساهموا في نهضتها.

أما الأمراء الأخيرون، فقد انسلخ معظمهم عن تعاليم الدين، وأقبلوا على الدنيا بما فيها : إذ ارتكبوا المذمومات، وانتحلوا الرذائل، وسلكوا طرقها، وتجرأوا على القتل، وعلى أخذ الأموال بغير وجه شرعي أو سياسي، وأعطوا المثال السيء الى السكان بما أعلنوه على بعضهم من ثورات - تنازعا على السلطة - اضطروا بسببها : قارة الى التنازل على

الإمارة، وتارة إلى الفرار، وتارة إلى القتال وما إليه من اتخاذ وسائل قمع ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن جراء ذلك، واجهتهم صعوبات كثيرة. أسفرت عن حدوث خلافات بين القبائل وانشقاق في بعض المدن، وأثارت كثيرا من التشنج والقلق التي تبعث في النفس خجلا، وسبق ذكر بعضها. وأنتجت ضعفا في نفوذهم. ووهنا في الروابط التي بينهم وبين السكان.

فاستضعفهم النصارى، ونالوا من هيبة الدولة ومن خيرات البلاد ما نالوا - ومثلهم « أبو الحسن المريني » الذي هاجم البلاد بجيشه، وقتل أميرها الثاني عشر « أبا حفص عمر الثاني »، واحتل العاصمة - وإن بلغت مدته فيها ثلاثين شهرا ونصفا فقط، فانها كانت تدوم أكثر لو لا أن ثار عليه السكان وأجبروه على الهروب.

وكان على الأمراء الثلاثة الآخرين - بالخصوص - أن يتعقلوا بذلك، ويتداركوا الأمر، إلا أن تشبثهم بالسلطة دون اعتماد على الشعب كان المسيطر على نفوسهم، ووصل بالأمير « الحسن بن محمد » إلى أن استجند بمالك إسبانيا. وبذل له ما أرضاه في العاجل والاجل، فسجل اسمه بمداد الخزي والعار واللعة، وأصبحت البلاد « محمية إسبانية »، وهوجمت من طرف الكثيرين حسبما تقدم إيضاحه.

فذاق الشعب من جراء ذلك لباس الجوع والخوف إذ أصبحت كرامته مداسة، وأمواله منهوبة، ودوره مغصوبة، وكتبه ممزقة بسنابك الخيل، وجامعه الأعظم مربطاً للدواب، إلى غير ذلك مما يسوء ذكره، وقابله الشعب بردود فعل كبدت الأسباب الهزائم الشنيعة، والخسائر الفادحة.

وبذلك تفاقم الوضع، ولم يفد تسميل عيني الأمير «الحسن بن محمد» - ولا استنجاد الأمير «أبي العباس الثاني» بالاسبان من جديد ضد الأتراك - ولا ارتحاله عن البلاد - ولا تعاون أخيه الأمير «محمد الحسن» مع الاسبان - إذ أسفر تدخل الأتراك في النهاية عن اعتقال هذا الأمير، وتطهير البلاد من الاسبان.

وعلى تلك الصورة، انقرضت الدولة الحفصية، ونفذ قضاء الله، ولا مرد لحكمه. إذ الملك لله يؤتیه من يشاء من عباده - والعاقبة للمتقين.

الفصل - 14 -

ملاحق

هي جملة نصوص مكملة لما اثبتناه ، وموضحه لـ ما
أجملناه - وفحواها :

(1) وصية مؤسس الدولة الحفصية « أبي زكرياء يحيى » لولي
عهده. ومصدرها : ج - 1 - من تاريخ ابن أبي الضياف -
ص 157 وما يليها.

(2) نصاب لسائح مسيحي زار تونس سنة 875 هـ = 1470 م. ،
وموضوعهما : مدينة تونس في القرن 15 - حراسة السواحل.
ومصدرهما : كراس الملتقى التربوي الأول.

(3) ثلاثة نصوص للرحالة المصري « عبد الباسط بن خليل »
الذي زار تونس في القرن 15 ميلادي ، وموضوعها :
التجارة بتونس - فدية الأسرى - الأطعمة في تونس.
ومصدرها : البحوث التربوية - الكراس - 1.

(4) نصاب للرحالة « آدرون » الذي زار تونس في العهد
الحفصي ، وموضوعهما : أطعمة تونسية - فنون الأندلس في
تونس. ومصدرهما : البحوث التربوية - الكراس - 1 -.

5) تراجم شخصيات ممن برزوا في ذلك العهد - وهم :
- ابن خلدون، ومصدر ترجمته : تونس عبر التاريخ -
ص. 213 وما يليها.

- ابن عرفة، ومصدر ترجمته عدة كتب، من بينها، :
أعلام الفكر الاسلامي.

- خير الدين باربروس، ومصدر ترجمته : عدة كتب من
مصادر الكتاب.

6) مبحثان موضوعهما : الحروب الصليبية، ومصدره عدة
كتب، من بينهما : حضارة العرب - والمؤنس. والدولة
التركية، ومصدره : مفتاح التاريخ - وتونس عبر التاريخ.
وسنثبت فيما يلي تلك النصوص مرقومة حسب الترتيب
أعلاه.

① - وصية ابي زكرياء يحيى

هي وصية نذل على فضله، ويجدر بكل مسؤول أن يتحلى بما حوته. كتبها لابنه «أبي يحيى زكرياء» عندما ولاه عهده سنة 638 هـ. = 1240م. لما فيه من العلم والشجاعة والكرم والعدل.

وقد أشهد على ذلك أهل الحل والعقد، من العلماء ورجال الدولة وقادة الجند وغيرهم، وقرئت عليهم تلك الوصية. ولنفاستها وطرافتها ذكرها العلامة ابن خلدون في تاريخه. وها هو نصها بمعناه الفائق، ولفظه الرائق :

« اعلم - سددك الله وأرشدك. وهداك الى ما يرضيه وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السريرة - أن أول ما يجب على من استدعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولاً عن رعيته، أن يقدم رضى الله تعالى في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله، ويكون عمله وسعيه وذبه عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه، والبراءة من الحول والقوة إليه.

ومتى فجأ أمرٌ مغلق، أو ورد عليك نبأ مرهق، فريض
لبك وسكن جأشك، وارع عواقب أمر تأتبه، وحاوله قبل
أن ترد عليه، ولا تقدم لإقدام الجاهل، ولا تحجم لإحجام
الأخرق المتكاسل.

واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقصر عن مقاومته
رجاله، فمفتاحه الصبر والحزم، والأخذ مع عقلاء العيش
وذوي التجارب من نبهاء الناس، ثم الاقدام عليه، والتوكل
على الله فيما لديه، والاحسان لكبير جيشك وصغيره،
الكبير على قدره والصغير على قدره، ولا تلحق الحقير
بالكبير، فتجریء الحقير على نفسك، وتغلطه في نفسه،
وتفسد نية الكبير، فيكون إحسانك اليه مفسدة في كلا
الوجهين، ويضيع إحسانك، وتشتت نفوس من معك. واتخذ،
كبيرهم أباً، وصغيرهم ابناً، واخفض لهم جناح الذل من
الرحمة، وشاورهم في الأمر، فاذا عزم فتوكل على الله
إن الله يحب المتوكلين.

واتخذ نفسك صغيرة، وذاتك حقيرة. وحقر أمورك، ولا تسمع
كلام الغالطين المغلطين بأنك « أعظم الناس قدراً، وأكثرهم
بذلاً، وأحسنهم سيرة، وأجملهم صبراً » فذلك غرور،
وبهتان وزور، واعلم أن من تواضع لله رفعه الله.

وعليك بتفقد أحوال رعيتك، والبحث عن عمّالهم،

والسؤال عن سيرة قضائهم فيهم، ولا تنم عن مصالحهم،
ولا تسامح أحدا فيهم.

ومهما وقعت ملة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيرا
ولا صغيرا إذا عدل عن الحق، ولا تراع في فاجر ولا
متصرف إلا ولا ذمة، ولا تقتصر على شخص واحد في
مسائل الرعية والمتظلمين، ولا تقف عند مراده في أحوالهم.
اتخذ لنفسك ثقة صادقين مصدقين، لهم في جناب الله
أوفر نصيب، وفي رفع مسائل خلقه اليك أسرع مجيب.
وليكن سؤالك لهم أفذاذا، فانك متى انتصرت على شخص
واحد في نقله ونصحه، حماه الهوى على الميل، ودعته
الحمية الى تجنب الحق، وترك قول الصدق.

وإذا رفع إليك أحد مظلمة وأنت على طريق، فادعه
إليك، وسله حتى يوضح قصته اليك، وجاوبه جواب مشفق
مصغ الى قوله مصيخ الى نازلته. ففي إصااختك له وحنوك عليه
أكبر تأنيس، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة أعظم تأسيس.

واعلم أن نعاء المسلمين وأموالهم حرام على كل مؤمن
بالله واليوم الآخر، الا بحق أوجه الكتاب والسنة، وعضدته
الأقاويل الشرعية والحجة، أو في مفسد عاث في طرقات
المسلمين وأموالهم، جار على غيه في فساد صلاحهم
وأحوالهم، فليس له الا السيف، فان أثره عفاء، ووقعه
لداء الأدمغة الفاسدة دواء.

ولا تُنقل عشرة حسود على النعم عاجز عن السعي، فإن
إقالاته تحمله على القول. والقول يحمله على الفعل. ووبال
عمله عائد عليك. فاحسم داءه قبل انتشاره، وتدارك أمره
قبل إظهاره.

واجعل الموت نصب عينيك، ولا تغتر بالدنيا
وإن كانت في يدك، فلا تنقلب الى ربك الا بما قدمته من
عمل صالح. ومتجر في مرضاته رابع.

واعلم أن الايثار أربح المكاسب وأنجح المطالب،
والقناعة مال لا ينفد. وقد قال بعض المفسرين في قوله
عز من قائل « وتركنا عليه في الآخرين » إنه النبأ الحسن في
الدنيا على ما خلد فيها من الاعمال المشكورة، والفعلات
الصالحة المذكورة. فليكفك من دنياك ثوب تلبسه، وفرس
تذبُّ به عن عباد الله.

وأرجو بك - متى جعلت وصيتي هذه نصب عينيك -
لم تعدم من ربك فتحا ييسره على يدك، وتأيدا ملازما لا
يبرح عنك بمن الله وحوله.

والله يجعلك ممن سمع فوعى، ولبي داعي الرشد إذا
دعا، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا
قوة الا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل» -.

ج . 1 - تاريخ ابن ابي الضياف
ص . 157 وما يليها

② - مدينة تونس في القرن 15

مدينة تونس هي اليوم عاصمة إفريقيا « البلاد التونسية ». لها سور منيع، وستة أبواب، وعدد كبير من الحصون المجانية للسور. ولها ضواح شاسعة، وكلها عامرة وملتصقة بعضها ببعض.

وفي داخل المدينة، يوجد مكان خاص لكل صناعة من الصناعات، كما أن كل نوع من البضائع يوجد في مكان مخصوص.

وفي تونس عدد من المساجد يقارب الدائتين. وفي خارج الباب الشرقي، توجد فنادق النصارى والأجانب، من جنوة والبندقية، وبيزة، وفلورنسا، وغيرها. وهذه الفنادق عبارة عن رحاب مربعة الشكل، محاطة كلها بالجدران. وفيها مساكن عديدة مختلفة، يدخل إليها من باب واحد. وفي تلك المساكن يقيم التجار ويبيعون بضائعهم.

وفي غربي المدينة قصر عظيم جميل، يدعى القصة، حيث يقيم الأمير. وفي طرف المدينة شرقا، يوجد مكان

محاط بالجدران له بابان، أحدهما يواجه البحيرة، والآخر يواجه المدينة. وفي هذا المكان الذي يسمى دار الصناعة، تدخل مراكب الأمير وسفنه.

وعن بعد من ذلك، توجد بناية تسمى الديوانة - (الجمرك)، حيث تنزل جميع البضائع - سواء كانت آتية من البحر أو من المدينة، ويؤخذ عن كل بضاعة معلوم قدره العشر - مثلاً : فضلة من القماش عن كل عشرة فضلات.

فهاتان البنائتان متصلتان ببحيرة كبيرة، وتتصل هذه البحيرة بالبحر بواسطة قنال ضيق، تعبره الزوارق محملة بالبضائع الواردة من السفن، لتنقل الى تونس، أو الواردة من المدينة لتحمل على السفن

« سائـح مسيحي »

عن كراس الملتقى التربوي الأول

محمود المنيش (البرشي)

● - حراسة السواحل

.....وما زالت الى عهدنا الحاضر ديار هامة، وقصور عظيمة، وحصون قائمة بقرطاجنة، وكذلك عدد من الأسوار العالية التي تستخدم لحراسة إفريقية (البلاد التونسية). فاذا قربت سفن من قرطاجنة، فان مراكز الجراسة تتلقى إشارات خاصة، وتنقل تلك الاشارات من مركز الى مركز حتى تبلغ الى مدينة تونس.

وفعلا، فان هناك - قبالة قرطاجنة - جبلا يدعى (جامور) قائما في البحر، ويفصل بينه وبين قرطاجنة بحر عميق جدا، كثيرا ما تقصده مراكب القرصان، لان المكان ملائم لعمليات النهب. وحيث أنه يخشى من تسرب النصارى، فان قرطاجنة مخفورة بحراسة محكمة، وعدد الرجال المسلمين القائمين بالدفاع عن ذلك المكان وعن كامل البلاد، لا يقل عن عشرة الاف، لا سيما أنه يكتفي أن تغزى قرطاجنة ليسهل احتلال كامل البلاد.

وقد حدث ذات يوم أنني دسمت مع صاحب سفينتنا الى قرطاجنة للصيد على الساحل، فاذا بمركب محمل بالاسلحة والرجال يطلع علينا، ويبعث فينا رعبا شديدا. ولو لا أننا أثبتنا بأن لنا جوازا من أمير تونس، لوقعنا في الأسر، ووقع استخدامنا لجذب المراكب.

ولذلك، فالرأي عندي، أنه لا ينبغي لأحد من الأفرنج
النصارى، أن يدخل قرطاجنة، اللهم إذا استظهر بجواز
صريح من قبل الأمير أو أحد أعوانه - وذلك لما ذكرت
من خوفهم من النصارى

« سائح مسيحي »

عن كراس الملتقى التربوي الاول



④ - التجارة بتونس

وفي الثالث من محرم سنة 871 = 1466 م. جرت غريبة وهي أن شخصا من التجار قدم بأشياء، ومن جملة ثلثة قرون ملأى بالزباد الجيد تساوي قيمتها جملة من المال. فخاف إن دخل بها من باب المدينة أن يؤخذ عشرها. وقد جرت العادة أن من خاف عن نفسه من مثل ذلك، وزع ما معه لمن يدخل البلد من أهله. فاتفق أن خرج «أمير الباب» الذي هو عليه أخذ هذه العشور. فرآه هذا التاجر، فتوسم فيه الخير، وسأله أن يأخذ هذه الثلاثة قرون، ويدخل بها من الباب.

فأجابه الى ذلك، بعد أن قال له التاجر : لعلك تدخل بها الى المدينة وتخلصني من تعشيرها، وتسليط الظلمة علي، ويحصل لك أجر، وأثيبك على ذلك بشيء من مالي.

فقال له حبا وكرامة. وأخذ منه ذلك، وأخفاه معه، ودخل به من الباب. ثم دخل التاجر بعده، فوجده الجالس لأخذ العشور بالباب فلم يمكنه أن يقابله ولا يكلمه.

فقصدني هذا التاجر، وكان بيننا معرفة من قبل ذلك. وذكر لي واقعته، وصار في غاية التخوف من أن ينكر العشار ذلك، أو يجعل له الذنب، فيأخذ جميعه. فانه جرت بعض

العادة بأن من فعل ذلك من التجار وظفر به، أخذ جميع ما فوزه وأخفاه من التعشير

فحملت همّ هذا المسكين، وقلت له : قد غررت بنفسك، فلا حول ولا قوة الا بالله. لكن قُمْ بنا اليه عساه أن يسخره الله تعالى، ونكلمه في أخذ عشره، ونعتذر اليه، وأنا أساعدك عليه. فاني أعرف هذا الشخص، فلعله لا يخيننا، ولا شك عندنا أننا إذا أكرمناه غاية الاكرام، أن يأخذ العشر، ويرد الباقي

فلما قدمنا عليه، ووقع بصره علينا، نهض قائما، وأجلسني بمكان أرفع منه منزلة، وأجلس الآخر. ثم أخذت في الكلام معه سرا، وقلت : خذ العشر، ورد الباقي الى صاحبه، ولك أيضا شيء يخدمك به ولا تؤاخذه.

فقال أعوذ بالله أن يقبح بي أن يكون هذا الغريب قد ظان بي الخير، وأخذ العشر من متاعه، ولم يطلع عليه الشهود، ولا غيري من أهل الباب، وقد اعتمد في تخليصه علي، وأنا أحضر به اليك بنفسي بعد المغرب.

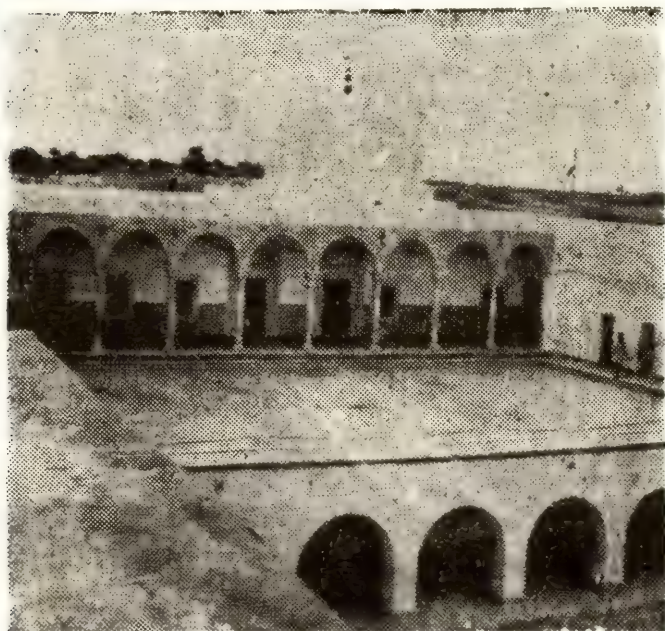
ثم التفت الى صاحب المتاع وقال له : متاعك عند فلان، اقصده باكر النهار تجده عنده، — وأشار اليّ. فشكرته على صنيعه، ودعوت له، وقمنا

فحصل للتاجر بذلك غاية السرور، وأحضر شيئا من

نوع الهدية لنعطيه صاحب الباب اذا حضر عندى بالزباد .
 وعندما حضر ومعه القرون ، واسلمها لصاحبها ، اقسم
 بالله انه لا ياخذ الهدية ، وانه لو ظفر بالزباد معه او مع
 غيره لعشره ، وكان عشرها نحو العشرين ديناراً .
 فعجبت من هذا الانسان غاية العجب ، مع ظلمه ووقوفه
 فى هذه الوظيفة ، كيف عف وكف !

« عبد الباسط بن خليل »

البحوث التربوية - الكراس - 1 -



زاوية الشيخ عامر المزوفى

⑤ - فدية الاسرى

وفي يوم الاربعاء الثامن والعشرين من ذي الحجة من عام 866 = 1461 م.، ورد الى مرسى تونس والي مينها اثنان من مراكب الافرنج ومعهم أسرى للفدى ...

واتفق لي أنني نزلت الى المرسى، ونزلت في قارب للتفرج على هاذين المركبين، فطلعت الى الأكبر منهما.

وبينما أنا اتفرج فيه، إذ بشخص من الاسرى المحضرين تركي الجنسية من بلاد حاج ترخان لا يعرف شيئا باللغة العربية، بل بالتركية والفرنجية، لم يبق غيره من الأسرى.

ف..ألته بالتركية عن اسمه. فأجابني. ثم قال لي : أنا من أسرى المسلمين. فقلت له : قد أفدي جميع أسرى المسلمين فما بالك ؟ فقال : كلموني في خبر الفدى، فلم أعرف بلغة العرب لأترجم عما في ضميري، فلم يلتفت إلي أحد، واطنوا أنني كافر.

فوعده بأنني أفديه، فدعا لي. ثم لما نزلت اجتمعت بصاحبنا الخواجا، التاجر المعظم المكرم سيدي أبي القاسم البنيولي، فحدثته عن هذا الشخص، فقال : والله إننا ظننا أنه من الكفار ولم نفهم لغته.

فأعلمته باسلامه، وأنه تركي الجنسية من خيار
المسلمين، لا يعرف غير لغة الترك والافرنج، فانه أسر
في أيديهم.

فتألف في قضيته، وفديته بأربعين ديناراً من مالي،
وأنزلته الى البر. فلأزمني في خدمتي عدة سنين الى أن
وردت القاهرة، فتوفي بها في طاعون سنة 873 هـ. = 1468 م.

« عبد الباسط بن خليل »

البحوث التربوية - الكراس - 1 =

⑥ - الاطعمة في تونس

وفي يوم الاحد السابع والعشرين من ربيع الاول سنة 867 = 1462 م.، جمع التاجر المعظم، الخواجا المكرم أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي، نزيل تونس وكبير التجار بها، جماعة من أعيان التجار من أصحابه، والحجاج منهم من أهل الأندلس، وغيرهم، وعمل لهم ضيافة حافلة، بمكان من أجنة تونس - يقال له : (رأس الطاية) مسن منتزهات أمراء تونس، وأمكنه فرجهم.

وكنت في ذلك اليوم ممن دعي لهذه الضيافة، فرأيت هذا الجنان في غاية الاتقان والحسن

ثم هياؤا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له :
« المعجينة » من ماكيل الأندلس.

وصفته جبن طري يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين، ثم يعجن السميد عجنا محكما جيدا حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلا، وأغلظ قواما منه بيسير، ثم يؤخذ منه قطعة تبسط بالكف بلطافة، ثم يجعل عليها قطعة من العجين المدعوك، ويجمع حتى يصير الجبن حشوا لها. ثم يبسط قليلا، ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن، فيقلّى، ثم يرفع، ويرش عليه السكر المدقوق ناعما، ومعه اليسير من الكمون. وقد عمل ذلك بين أيدي الحاضرين...

« عبد الباسط بن خليل »
البحوث التربوية - الكراس - 1 -

٧ - اطعمة تونسية

.... وقد أكلنا عند أحد الأهالي، في منزله بالبادية، خارج مدينة تونس فجلسنا على أرضية مجازة تغطيها زريبة.

فأتي إلينا أولا بقصعة كبيرة مستديرة، ملأى بمرطبات مصنوعة من الدقيق، والعسل، والزيت، والزبيب - « لعله المقروض » - .

وتحت ذلك في قعر القصعة كانت كويرات من العجين في حجم الجلبان تسمى (بيزين). وقد وقع طبخها في مرق الدجاج. وهي تؤخذ عند الأكل بجميع أصابع اليد. (1)

ثم أوتي إلينا باناء كبير به جففات من الصلصال، على عدد المدعوين، وفي كل واحدة : فروج مطبوخ وملفوف في رداء من دوارة الخروف.

ثم قدمت لنا ثمار : لوز، وتمر، وتفاح، وأخيرا : حبات من الخشخاش تجلب النوم.

(1) لعله المحمص .

وفي المساء، بعد أن نام البعض، واشتغل البعض الآخر
في اللهو، قدمت لنا قصعة كبيرة من الكسكس الذي يكثر
أكله في هذه البلاد، كما يكثر استهلاك الفول والحمص
داخل الفرن ...

« رحلة آدرون »

البحوث التربوية - الكراس - 1 -

⑧ - فنون الاندلس فى تونس

.... وفي خارج المدينة حدائق جميلة للغاية، لا يقص عددها عن أربعة آلاف .حديقة. فليس هناك أي ساكن خارج المدينة الا وله بستانه الخاص به.

وتتضوّع من تلك البساتين روائح من شتى أنواع الأزهار. كما انها تشتمل على أنواع عديدة من الأشجار المثمرة....

وهذه البساتين منظمة بعناية كبيرة، وفي كل منها بنائه مرتفعة جميلة، أرضيتها مغطاة بحجارة مزينة. كما يوجد فيها صهريج جميل جدا، وحمام للصيف، وآخر للشتاء....

وقد زرنا عددا وافرا من هذه الحدائق، وخاصة حديقة الابن الكبير للأمير : يعترضنا عند الدخول باب كبير يفتح على مسكن جميل جميع حيطانه مغطاة بنقش .حديدة، ويشبه ذلك النقش المجيد النقوش الرقيقة التي تغطي خشب الأسرة المستعملة في هذه الربوع.

ويغطي الأرضية جليزٌ أبيض ناصع . وأصفر ليموني، وأزرق سماوي، وأسود، مع أشكال وصور في ألوان مختلفة. وفي وسط الأرضية بكل قاعة حوض مستدير من المرمر الأبيض عادة، وفي وسط الحوض نافورة صغيرة.

أما سقف البيوت، فهو مزين ومذهب ومنقوش بأشكال عديدة. والنوافذ مربعة الشكل صغيرة. ترتفع عن الأرض قدر قدمين فقط، بحيث يرى منها الجالس في القاعة ما يجري خارجها.

وبالقرب من تلك البناية صهريج مرتفع عن سطح الأرض، ويقع الدخول إليه من وسط الدار عن طريق مدرج عريض. ويأتي الماء إلى ذلك الصهريج، من بئر عميقة يخرجها منها جمل مغطى العينين، وذلك بواسطة أوعية مشددة إلى عجلة تدور. فكلما ارتفعت أوعية جاءت ملأى، وصبت في حوض مربع الشكل، ثم تنزل إلى البئر وتمتلئ من جديد، وهكذا.

وفي داخل الحوض عجلة أخرى تدفع الماء في قنوات متحدرة المستوى، فتندفق بعد ذلك في أحواض الغرف كأنها خارجة من صنوبر.

ومن هنالك تنتقل المياه عن طريق قنوات أخرى إلى الصهريج، وتستعمل فيما بعد لتوزع في الحديقة، في سواقي مبنية على حيطان قصيرة.

« رحلة آدرون »

البحوث التربوية - الكراس - 1-

⑨ - ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن خلدون من أصل أندلسي .

ولد بمدينة تونس في غرة رمضان سنة 732 ، الموافق لـ 27 مائة سنة 1332 - في مدة الأمير الحادي عشر « أبي بكر بن أبي زكرياء »

زاول تعلمه بمدينة تونس إلى أن ملأ وطابه من العلوم، وأصبح متضلعا : في الفنون، والمنظف، والفقه، والفلسفة، والأدب، والتاريخ - واعتبر أعلم رجال زمانه.

ومنذ سنة 748 هـ. = 1347 م.، دخل محترك الحياة فتقلد عدة وظائف بتونس، وبفاس، وأسندت إليه عدة مأموريات هامة : في الاندلس، ثم في تونس. واشتغل بالتدريس في القاهرة، ثم تقلد خطة قاضي القضاة بها.

وفي سنة 789 هـ. = 1387 م.، أدى فريضة الحج ، ثم استقر بالقاهرة، واستأنف الاشتغال بالتدريس إلى أن توفي ودفن بها، في 25 رمضان سنة 808، الموافق لسابع عشر مارس سنة 1406.

ومن آثاره :

1) مقدمة تاريخه العجيبة — المشهورة بـ (مقدمة ابن خلدون) . وهي من أجل وأنفع الكتب لما فيه من الفلسفة العمرانية والآراء الاجتماعية. وقد ترجمت الى اللغة الفرنسية وغيرها ، وكتب عنها أنها خزانة علوم : اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وأدبية.

2) وتاريخه العظيم المعروف بـ (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر . في أيام العرب والعجم والبربر).

وكان ابن خلدون دقيق الملاحظة ، راجح العقل ، بعيد النظر في احكامه التاريخية. ويعتبر نموذجا لكتاب عهد (الدولة الحنفية) الذي بلغت فيه العربية مستواها العالي.

ويعتبر أثره برهانا على مبلغ الشوط الذي قطعه الحضارة بتونس ، في ذلك العهد. وقد قلد به لتونس ذكرا حميدا ، وكسابه سمعتها مجدا مؤثلا.

عن « تونس عبر التاريخ »

ص. 213 وما يليها

⑩ - ابن عرفة

هو أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي نسبة إلى قبيلة (ورغمة) المستقرة بالجنوب الشرقي التونسي حول مركز ولاية مدنين.

ولد بتونس سنة 716 هـ = 1306 م، في مدة الأمير التاسع «أبي يحيى زكرياء الأول».

نشأ بالعاصمة، حيث تلقى مختلف علوم اللغة والدين وغيرها بجامع الزيتونة، وتكون تكويناً جامعاً بين الملكات، ورسخ قلمه في المناهج بين شرعية وأبوية وعقلية ورياضية. واشتهر بين شيوخه أقرانه بالجد والاجتهاد، وبالعبادة والزهد والورع.

ثم انتصب للتدريس، فاشتهر بغزارة العلم ومتانة الدين، سلمت له المهارة والاتقان حتى صار مرجعاً، فعظمت سمعته، وعلا نجمه، وأصبح أشهر علم بالبلاد.

وفي سنة 772 هـ = 1370 م، ولي إمامة جامع الزيتونة، ثم انتخب للافتاء بالعاصمة. فشاغ ذكره، وذاع صيت عمله، وازداد الانتفاع بعلمه، واعتبر «إماماً».

وفي سنة 790 هـ = 1388 م، سافر إلى بلاد المشرق حيث تقدمته سمعته الذائعة. وبعد أن أدى فريضة الحج

وستتي العمرة والزيارة، أقام مدة أقبل أثناءها على الأخذ
عنه مشاهير علماء الحرمين الشريفين والبلاد المصرية.

ولأثر رجوعه، استأنف نشاطه الى أن توفي سنة 803 هـ. =
1400 م. ودفن بمقبرة الزلاج بتونس - وذلك في مدة
الأمير السابع عشر « أبي فارس عبد العزيز ».

ومن آثاره : عدة تاليف مفيدة في فنون عديدة -
منها : كتاب المبسوط في الأصول - ومختصر في علم
الكلام - ومختصر في الفقه مشهور باسمه، قضى في تأليفه
اثني عشر عاما، وامتاز بحسن سبك المسائل، ومثانة
جمعها، وبراعة تفريعها وتفنيها، وبضبطها (التعريف) الذي
أصبح عمدة في الميدان العلمي الى أن صار يشترط ذكره
في الموضوع الكتابي المسمى (المقالة) في امتحان شهادة
التطويع بجامع الزيتونة.

عن عدة مصادر بتصريف
من بينها كتاب : أعلام الفكر الاسلامي
للمرحوم الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

11 - خير الدين باربروس

خير الدين باربروس - أي ذو اللحية الصهباء - هو من مسلمي بلاد اليونان التي كانت تحت حكم تركيا. ومثله أخ له يدعى «عروج».

وكانا يتعاطيان القرصنة البحرية - أي الاغارة بواسطة أسطولهما : على سواحل بلدان النصارى بحوض البحر الأبيض المتوسط - وعلى المراكب التابعة لها، لنهبها، وكسب الغنائم والسبايا - وذلك تحت رعاية الأمراء الحفصيين الذين كانوا يقاسمونهما ما يتحصلان عليه.

وكان من بين من عملوا تحت لوائهما عدد كبير من مهاجري الأندلس، وكذلك مسلم تركي من منطقة الأناضول يدعى «درغوث باشا» لم يلبث أن برع في قيادة السفن حتى صار رئيسا.

وبفضل ما اكتسبه من اموال طائلة، كون أسطولا عتيدا خاصا، واستقل ، واستمر يشغل بالقرصنة البحرية، فيغزو ويغير، ويلتجئ الى السواحل التونسية، فقوي بذلك شأنه، واكتسب شهرة كبيرة.

وفي سنة 957 هـ = 1550 م. حاصره النصارى بالمهدية، فأفلت منهم الى جزيرة جربة، فالتحقوا به وحاصروه فنجا

منهم. وولى وجهته نحو طرابلس فافتكها من الاسبان الذين كانوا يحتلونها ، وصار واليا عليها — وذلك سنة 958 هـ. = 1551 م. — .

وبعد سنتين، هاجم جزيرة جربة واحتلها وأطرد الاسبان منها، بعد أن مكثوا بها ستة أشهر، وامتلأت أيديهم من مغانمها.

ثم لى دعوة أهل القيروان حيث كان من أمره ما سبق لنا إثباته. ثم استأنف القرصنة ، فمات وهو محاصر لجزيرة مالطة سنة 973 هـ. = 1565 م. — .

أما الأخوان « خير الدين باربروس، وعروج »، فقد صارا من أشد القراصنة بأسا، واكتسبا أموالا طائلة، وشهرة عظيمة، وتوطدت الصلة بينهما وبين الأمير الحادي والعشرين « أبي عبد الله محمد » الذي أباح لهما الاستمرار في نشاطهما، مقابل دفع الخمس له مما يتحصلان عليه. فكانا يتوليان القرصنة، ويلتجئان بأسطولهما الى جزيرة جربة، ومدينة المهدية، وغيرهما من البلدان الساحلية التونسية، تحت حماية ذلك الأمير الذي كان يقاسمهما ما يتحصلان عليه.

ونتيجة لتعدد غارات القرصنة على سواحل إسبانيا، قام ملكها برد الفعل ضد بلاد الجزائر التي كان بها نقط انطلاق للقرصنة، وحاصر مدينة الجزائر.

فاستنجد سكانها بالأخوين « خير الدين باربروس وعروج »، فأنجدهم واحتلها. ثم قاما بغارة على مدينة تلمسان واحتلها، واستشهد « عروج ». وأصبحت مدينة الجزائر وما حولها بيد « خير الدين باربروس » - وذلك سنة 924 هـ. = 1518 م. - .

فأعلن ولاءه لدولة تركيا، فأمدته بقوة تمكن بفضلها من التوسع ، ومن طرد الاسبان من بجاية. وأصبح واليا تركيا ببلاد الجزائر، وقضى على مناورات سكانها - وذلك سنة 930 هـ. = 1523 م.

ولإثر ذلك، اغتنم فرصة ضعف الدولة الحفصية، وما جد بالبلاد التونسية من حوادث وقلاقل، فهاجمها سنة 935 هـ. = 1528 م.، وكان ما كان من أمره وسبق لنا إيضاحه، فرجع الى الجزائر حيث لقي حتفه.

عن عدة كتب من مصادر
الكتاب - بتصرف

12 - الحروب الصليبية

سبق لنا التعرض الى الحملة الصليبية على البلاد التونسية، التي قام بها ملك فرنسا لويس التاسع، المسمى القديس لويس، في مدة الأمير الحفصي الثاني (محمد المستنصر بالله).

ونضيف الى ذلك : أن تلك الحملة هي الثامنة والأخيرة بالنسبة للحروب الصليبية، وأنه من المناسب القاء نظرة على التي سبقتها - خاصة وأن للأخيرة ارتباطا بالسابعة.

هي حملات شنّها نصارى من أوروبا الغربية على العرب المسلمين، ليلتزعوا منهم (فلسطين العربية) التي كانت عاصمتها مدينة القدس، وفيها قبر عيسى بن مريم حسب زعمهم !

وسميت بـ(الصليبية) لأن أولئك النصارى كانوا يضعون شارة الصليب على ثيابهم وأسلحتهم.

وقبل شن تلك الحملات، كانت الصلة بين الغرب والشرق، أو بالأحرى بين نصارى أوروبا وسكان بلاد الشام العرب، مقصورة على زيارة مدينة القدس من طرف نصارى أوروبا.

وقد فرض تلك الزيارة رجال الدين المسيحي الأوروبيون وعدوها مكفرة عن أسوأ الجرائم، ترغيبا للنصارى على تأديتها، وتحمل المصاعب والمخاطر والمشاق من أجل القيام بها.

ولذلك كان عدد الزوار في نمو وازدياد. وكانت قوافلهم مؤلفة في معظمها من المجرمين الأشقياء، الذين ما كان ليدفعهم الى القيام بالزيارة غير الفزع من نار جهنم ! ومن أجل ذلك، وبسبب بعد المسافة، وقلة المواصلات وكثرة المشاق، كان الزوار يعتبرون أنفسهم من الظافرين فيكثرون من الضجيج عندما يؤمون مدينة القدس، ويدخلونها على صوت الصنوح وضوء المشاعل. ورغم ذلك، كان حكام مدينة القدس المسلمون يتسامحون مع أولئك الزوار، ويحسنون معاملتهم.

هذا، وقد دعا النصارى الى شن حملاتهم الصليبية تغير المعاملة نحوهم، بمدينة القدس. ذلك أن « السلجوقيين » ما أن أصبحوا يحكمون فلسطين، حتى أخذوا يجادلون الزوار في حق الدخول بدون إذن الى مدينة القدس. ثم فرضوا عليهم الاستئذان، ودفع ضريبة. فاعتبر الزوار ذلك سوء معاملة من طرف المسلمين.

واستشاط غيضا أحدهم، ويدعى (بطرس الناسك —

Pierre l'Ermite)، فتوجه الى رومة عاصمة إيطاليا، واتصل بالبابا (أربانوس الثاني - (Urbain II)، رئيس الديانة المسيحية، وبأذن منه، أخذ يجوب بلاد إيطاليا وفرنسا، ويخطب في الجموع، ويدعو الى محاربة العرب المسلمين، لافتكاك فلسطين من أيديهم، لتصبح مدينة القدس تحت سلطة النصارى، ويتم إنقاذ قبر المسيح عيسى بن مريم ! وكانت دعوته الشرارة الأولى للحروب أو الحملات الصليبية التي دامت قرابة القرنين، وبلغت عدتها ثمانية.

الحملة الاولى

شجع على شنها البابا «أربانوس الثاني»، بعهده في 26 نوفمبر 1095 = 488 هـ، بساحة كليرمون فران بفرنسا، مؤتمر دينيا حضره بطرس الناسك وجموع كثيرة من النصارى. وتحت ترديدهم لعبارة : (ديوس لوفولت - Deus le Volt) - أي الرب يريد ذلك، تحالفوا على الزحف الى فلسطين لانتزاعها من أيدي المسلمين، وإنقاذ قبر المسيح، وأجمعوا على أن يبدأوا بالزحف في أوت 1096 = 460 هـ، حتى يجمع أولياء الأمور جيشا كبيرا قادرا على القيام بذلك.

وما أن شاع الخبر، حتى اشتعلت نفوس نصارى أوروبا الغربية حمية، واستعد منهم 130 ألف مقاتل. ولم يرغبوا

في انتظار جيش منظم، بل تجمعوا بألمانيا عند نهر الدانوب، منذ حلول ربيع سنة 1096 م.، وعلى رأس أهم عصاباتهم « بطرس الناسك »، و (الفارس غوتشي الفقير - le chevalier Gautier sans avoir) ومنهم كانت نواة صليبي الحملة الأولى.

ومن هنالك قصدوا بلغاريا. فأكرموا في البلدان التي مروا بها، ولكن أهل بلغاريا أبوا أن يضيفوهم مجانا. فأخذوا ينهبون قرى تلك البلاد، ويذبحون أهاليها. فكان رد الفعل شديدا، وبلغ درجة أن أجبر الصليبيون على الرحيل. فجعلوا وجهتهم عاصمة البيزنطيين إذذاك - وهي (القسطنطينية) التي عرفت فيما بعد باسم : استنبول - وذلك عند فتحها بالاسلام.

وبها وجدوا عصابات أخرى، فانضموا الى بعضهم وأخذوا يقتلون وينهبون، ويأتون ما يفوق الوصف من الأعمال الوحشية. فتخلص منهم البيزنطيون، بنقلهم الى آسيا الصغرى. فاقتربوا هنالك ضد المسلمين والنصارى الجرائم الشنيعة. وقابلهم الترك بالمثل، وأقاموا من عظامهم هرما عظيما.

وهنالك، التحق ببقاياهم فيالق منظمة تامة العدة مؤلفة من سبعمائة ألف مقاتل. فانضموا الى بعضهم، وجعلوا وجهتهم القدس، وأخذوا يخربون البلدان التي يمرون بها. فكشروا لهم الجوع عن أنيابه، واضطرب حبل نظامهم، وفتكت

الأمراض والمجاعة بهم فتكا ذريعا. والتحقت بهم في طريقهم فيالق أخرى منظمة من الصليبيين تامي العدة، وبهم بلغ عدد من خرجوا للحملة الأولى مليون صليبي. لكن الوقائع والمجاعة والأوبئة والمنازعات قد تجمعت ضدهم، حتى لم تبق منهم سوى عشرين ألفا تمكنوا من الوصول الى القدس، والاستيلاء عليها — وذلك في 15 جويلية سنة 1099 = 493 هـ.

وبالقدس، قتلوا من المسلمين عددا مهولا، وذبحوا منهم عشرة آلاف. فأصبح المرء لا يرى في الشوارع سوى أكداش من الرؤوس والأيدي والأرجل، ولا يمر الا على جثث القتلى. ثم أبادوا من وجدوا من المسلمين واليهود وخوارج النصارى، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا، وكان عددهم 60 ألفا.

ومن أجل ذلك هاج الشرق وماج، وتناسى المسلمون جميع عوامل الانقسام، وأخذوا ينادون الى الجهاد. وقد تطلب جمع شتاتهم وتجمعهم وقتا طويلا، لكنه أحدث هلعا في قلوب الصليبيين الذين أخذوا يستغيثون بأروبا.

الحملة الثانية

تكونت سنة 1149 م. = 544 هـ. من جيوش جرارة فرنسية وألمانية هبت لنجدة الصليبيين بالقدس. وكانت

الفرنسية منها بقيادة ملك فرنسا (لويس السابع - Louis VII)،
والألمانية منها بقيادة قيصر ألمانيا (كونراد الثالث - Conrad III).

وقد فشلت هذه الحملة، إذ أبيدت جيوشها على بكرة
أبيها من طرف العرب المسلمين، الذين زحفوا فيما بعد
على القدس، بقيادة (صلاح الدين الأيوبي)، وتمكنوا من
استردادها - وذلك سنة 1187 م. = 583 هـ.، بعد أن بقيت
بيد الصليبيين 88 سنة ميلادية.

الحملة الثالثة

تكونت سنة 1189 م. = 585 هـ.، من جيوش فرنسية
وإنكليزية وألمانية، لاسترجاع القدس. وكانت الفرنسية منها
بقيادة ملك فرنسا (فيليب أوغست - Philippe Auguste).
والإنكليزية منها بقيادة ملك أنكلترا (ريشار قلب
الأسد - Richard Cœur de Lion). والألمانية منها، بقيادة
قيصر ألمانيا (فريدريك باربروس - Frédéric Barberousse)
الذي مات بأسيا الصغرى حينما كما يغتسل في (نهر
البردان - قرصوا - Fleuve Cydnus de Cilisée). ولم يتحقق
هدف هذه الحملة. وكان نصيب جيوشها الفشل والخسران،
ورجع من بقي حيا من حيث أنى.

الحملة الرابعة

تكونت سنة 1202 م. = 599 هـ، من جيوش فرنسية بقيادة أمير الفلاندر « بوادان ». وكان هدفها استرجاع القدس. وقد جعل صليبيوها وجهتهم القسطنطينية. فابحروا من ميناء « زارة » الإيطالية، ونزلوا بها. فنهبوا ما فيها، وحطموا كل ما لم يكن من الذهب أو الفضة، وكسروا تماثيلها، وأتلفوا الكتب المهمة الموجودة بها. وقد أخفقت هذه الحملة أيضاً، ورجع من بقي حيا من جنودها من حيث أتوا.

الحملة الخامسة

تكونت سنة 1217 م. = 614 هـ، من عصابات أت من كل حذب وصوب. وكان هدفها مهاجمة مصر طمعا في الغنائم. ولكن ما أن نزلت بمصر حتى اضطرت الى التقهقر والرجوع من حيث أتت.

الحملة السادسة

تكونت سنة 1228 م. = 626 هـ، من جيوش المانية بقيادة قيصر ألمانيا « فريدريك الثاني ». وقد وصل صليبيوها الى القدس، ولكنهم أحسوا بضعف، فاكثفوا بزيارتها تحت حماية حكامها المسلمين، وعادوا من حيث أتوا.

الحملة السابعة

تكونت سنة 1248 م. = 646 هـ، من جيش فرنسي يضم 50 ألف مقاتل، أعده ملك فرنسا لويس التاسع، الذي لم يهضم ما منيت به من خيبة الحملتان السابقتان. وقام على رأسه بغزو مصر، فكان الحسان حليفه، إذ كسر جيشه قبل أن يبلغ القاهرة، ووقع هو أسيراً. فطيف به راكباً على جمل ووجهه الى خلف. ثم سجن في دار على ملك « ابن لقمان » تحت حراسة طواشي « خصي » اسمه « صبيح ».

فافتدى نفسه بقناطير من الذهب، ورجع الى فرنسا بعد أن غاب عنها سنتين دون أن يرى القدس.

ثم عزم على العودة الى مصر. فعلم بذلك صاحبها، وكتب له رسالة بعث بها اليه مع رسول تلاها بين يديه قائماً. وقد جاء فيها :

قل للفرنسيس اذا جئتـه

مقال صلق من مقول فصيح

اثبت مصر تبتغى ملكها

تظن ان الدين باطل ريح

وقل لهم ان ازمعوا عوده

لاخذ ثار او لفعل قبيح

دار « ابن لقمان » على حالها

والقيد باق والطواشي « صبيح » (1)

(1) ص 137 - المؤنس - بتصرف .

فلما سمع الملك « لويس التاسع » ذلك، ذلت نفسه،
لكنه سرعان ما نسي ما تلي عليه، وما حدث له بمصر. فأبدل
عزمه، بتحريض وإغراء من أخيه « صاحب جزيرة صقلية »،
وتشجيع من « البابا » وبعض ملوك أوروبا، وكون :

الحملة الثامنة

وذلك سنة 669 هـ = 1270 م.، من جيش فرنسي يضم
ثلاثين ألفا من المشاة، وستة آلاف من الفرسان.

وقد أسلفنا القول عن هذه « الحملة » التي غرت البلاد
التونسية، عند الكلام عن الأمير الحفصي الثاني (محمد
المستنصر بالله) الذي حدث في مدته، والتي كانت خاتمة
« الحملات ».

والجدير بالذكر، أن الصراع من أجل « فلسطين العربية »،
المتمثل في الحروب الصليبية، كان منحصرا بين الصليبيين
والمسلمين، وأن السكان اليهود لم يقوموا بأي دور أو
أدنى حركة.

ومن جهة أخرى، فقد كان من أثر الحروب الصليبية
أن اتصل الغرب بالشرق العربي الاسلامي، بعد أن كانت
الصلة بينهما مقصورة على زيارة مدينة القدس من طرف
نصارى الغرب.

ومما يجب ذكره، أن الصليبيين قصدوا فلسطين العربية الإسلامية وهم يحسبون أنفسهم أرفع منزلة من أهلها. وكانوا يئنون أن المسلمين وثنون يعبدون (محمدًا) ويؤلهونه، ولكنهم ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت العشاوة عن عيونهم، وانقلبت أفكارهم، وتعدلت عواطفهم، ثم انتهى أمرهم فيما بعد إلى الإعجاب بتقاليد المسلمين وحضارتهم وأخذوا بها.

ومن ذلك يتجلى أن اتصال الغرب بالشرق، فضلًا عن تأثيره الحميد على أوروبا كما سنوضحه، فانه قد أدى إلى تبدل ظاهر في شعور الصليبيين، وأثر في حياتهم، وكان من أقوى العوامل على نشر الحضارة في أوروبا.

وبالفعل، فإن الشرق العربي - ومنه فلسطين - كان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب. وكان الشرقيون بما فيهم عرب فلسطين مثاليين في تصرفاتهم مع النصارى.

أما الغرب، فكان غارقًا في بحر الهمجية، وكان الصليبيون وهم من أهله، وحوشًا ضارية في سلوكهم، وبهائم ليس فيهم سوى فضيلتي الشجاعة والقتال. ويكفي دليلًا على ذلك، أنهم أثناء حملاتهم - كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء، ويدبحونهم على السواء، وأنهم خربوا أينما مروا ما لا يقدر بثمن من الكنوز الموروثة عن الأقدمين، وأن الشرق لم ينتفع منهم بشيء، لأنه لم يكن عندهم ما يفيد.

وبعكس ذلك الصليبيون، فانهم قد اكتسبوا من الشرق عند إقامتهم بفلسطين، مدة 88 سنة، بعض العادات وشيئا من الذوق الشرقي : في الأطعمة، والأشربة، أخصه ما يتعلق بالسكر والتوابل. وأقلعوا عن لباسهم الأروبي، وتعلقوا بالأزياء الشرقية التي كانت أدعى الى الراحة. وبلغ تعلقهم ببعض العادات والعقائد الشرقية، أن كانوا يصلون أحيانا في المزارات التي يقدسها المسلمون . وبخصوص السكنى آثروا البيوت الشرقية الطراز. وما فيها من إيوانات واسعة ومياه جاربة.

ومن أثر اتصال الغرب بالشرق — عقب الحروب الصليبية — نمو التجارة بين أوروبا والعرب المسلمين، وعقد المعاهدات التجارية بينهما. وبفضل ذلك تمكن الغربيون من تقليد نفائس الشرق من الثياب وغيرها، ومن ترقية الصناعة بأوروبا.

فقد اقتبسوا صناعة الخشب والمعادن، والميناء والزجاج والذرائع الحربية، والصباغة المتينة — وهي صنائع كانوا يجهلونهم. كما أخذ صانعو الأسلحة ونجاروها ومن اليهم، ما كانوا يجهلونه بأوروبا من المعارف الصناعية. وبواسطة البنائين تحول فن العمارة في أوروبا تحولا تاما. وعن الشرق أخذت أوروبا أيضا صنع المرايا الزجاجية المطلية المتقا بغشاء معدني، فاحتلت مكان الفولاذ الصقيل الذي كان مستعملا بها.

وكان من أثر ذلك الاتصال أيضا، أن استعادت أوروبا الحمامات العمومية. وقد كانت هذه الحمامات رائجة في عهد الرومان إلا أن النصرانية لم تحبها !

كما حمل الصليبيون معهم من الشرق كتابا هاما في الطب، ترجمة عن العربية أسطفان الانطاكي، ويعرف بكتاب المجوسي في الطب (ص. 784 - ج. 3 - من تاريخ العرب، تأليف حتي جرجي جبوز طبع دار الكشف 1951). وما أن انتشرت محتوياته في أوروبا، حتى أنشئت كثير من دور المعالجة والمستشفيات ودور مداواة البرص. وبذلك انتشرت طريقة التداوي المنظم.

يضاف الى ذلك، أن الصليبيين سمعوا قصص (كليلة ودمنة) وغيرها من القصص الشرقية، ونقلوها الى أوطانهم. وما أن انتشر أمرها، حتى أصبح بعض كتابهم يستمدون منها بعض حكاياتهم.

ونشر الصليبيون بأوروبا أيضا - إثر رجوعهم إليها - أحدث أنواع الطواحين الهوائية، وأنواعا عديدة من النباتات والأشجار المثمرة - ومنها : السمس « الجلجلان »، والذرة « الدرع »، والخروب، والأرز، والليمون، والمشمش والبطيخ.

ونقلوا أيضا : أنواع البسط والسجاجيد، والأنسجة الموشاة، وأنواع الروائح العطرية، والتوابل، والحلويات الشرقية،

وحجر الشب والند، والسكر الذي كان مجهولا في
أروبا - إذ كان أهلها يستخدمون العسل لتحلية أطعمتهم.

وفي الميدان الحربي، نقل الصليبيون : استخدام الحمام
الزاجل لإرسال المعلومات - وعادة إشعال الأنوار احتفالا
بالنصر - وعادة إجراء حفلات السبق ولعب الخيل -
وعادة استعمال الأوسمة والشارات للفرسان.

وبالإضافة الى ما تقدم، فإن الأوروبيين نقلوا عن الشرق :
مبادئ الديمقراطية، وتحرير الزراع والصناع، مما فسخ
المجال لأن تصبح الثقافة في أروبا أمرا مشاعيا بين جميع الطبقات.
وهكذا يتضح أن اتصال الغرب بفلسطين العربية كان له
أثره العظيم في تدمينه - ويتجلى أن هذا البلد كان سببا
في إخراجه من التوحش، وأعد النفوس الى التقدم.

فهل من باب اعتراف الغرب بالجميل : أن ينصب بالقوة
مشردي اليهود بفلسطين، ويحلهم محل سكانها العرب !

وهل من باب الرضى أو عدم الاكتراث ملازمة « البابا »
الحالي وأحفاد الصليبيين الصمت، إزاء اعتداء اليهود على
ما تحويه القدس - ومنها مقدسات المسيحيين !

بتصرف - عن عدة مصادر من بينها :
حضارة العرب لغوستاب لوبون،
والهؤنس لابن أبي دينار.

13 - الدولة التركية

من خلال ما حدث في مدة الأمراء الأربع الأخيرين، يتجلى الصراع الذي أسفر في النهاية عن سقوط الدولة الحفصية.

لذا رأينا من المناسب التعريف باحد مصدري ذلك الصراع وهو : الدولة التركية، أو دولة تركيا أو الدولة العثمانية - التي أصبحت بلادنا تابعة لها إثر سقوط تلك الدولة.

هي دولة تأسست سنة 699 هـ 1300 م.، ودامت 643 سنة هجرية. عاصمتها مدينة « بروسا » في ال 158 سنة الأولى، ومدينة « القسطنطينية » في المدة الباقية.

مؤسسها هو (عثمان بن أرطغول) الذي يرجع نسبه الى قبيلة تركية استقرت بجهة الأناضول منذ القديم، وأسلمت في منتصف القرن الرابع الهجري.

ملوكها يلقبون بالسلطين، وبلغ عددهم 27 سلطانا أولهم هو مؤسسها، وقد نشأت إمارة ضعيفة، وعرضة للخطر، وفي حالة حشد عام خوف الحرب. ثم أخذت أركانها تثبت، ومنطقة نفوذها تتسع على حساب الروم، الى أن أتمت جيوشها فتح البلاد، التي تعرف اليوم بتركيا، بالاستيلاء، بقيادة السلطان السابع (محمد الفاتح)، على مدينة القسطنطينية -

التي صارت تعرف بأستنبول - وذلك سنة 857 هـ = 1453 م.

وكان تاريخ ذلك الاستيلاء فاتحة عصر جديد هو عصر الأمبراطورية التي تمكنت خلاله شيئا فشيئا من الاستيلاء على كثير من الممالك الأوربية - منها : اليونان، وألبانيا، ورومانيا، وبلغاريا، والمجر، وعلى معظم البلدان العربية والاسلامية - ومنها، مصر، التي أصبحت جميعها «إيالات تركية»

وكانت مصر عند استيلاء الجيوش العثمانية عليها سنة 924 هـ = 1517 م. مقر الخلافة العباسية التي تجددت بها منذ سنة 660 هـ = 1262 م.، بعد سقوطها بمدينة بغداد قبل ذلك بأربع سنوات.

وبالاستيلاء عليها سقطت الخلافة العباسية من جديد. وتسلم السلطان العثماني التاسع «سليم الأول» من الخليفة العباسي «المتوكل على الله» مقاليد الخلافة - وهي الاثار النبوية الشريفة - أي : اللواء، والسيف، والبردة. كما تسلم منه مفاتيح الحرمين الشريفين. وبذلك أصبحت الخلافة الاسلامية في أيدي السلاطين العثمانيين، وأصبح الواحد منهم في آن واحد (سلطانا وخليفة).

وإثر وفاة ذلك السلطان سنة 927 هـ = 1520 م. خلفه «سليمان القانوني» فكان السلطان العاشر. واليه أعلن ولاءه

« خير الدين باربروس » - بعد أن أصبحت مدينة الجزائر وما حولها بيده سنة 924 هـ. = 1518 م، - ، ودخل في طاعته : بالدعاء في الخطب الجمعية، وبضرب السكة باسمه. فأمدّه بقوة تمكن بفضلها من التوسع ومن طرد الاسبان من بجاية، وقضى على مناورات السكان، وأصبحت بلاد الجزائر « إيالية عثمانية » وأصبح هو واليا عليها. ثم هاجم البلاد التونسية سنة 935 هـ. = 1528 م، وكان من أمره ما سبق إثباته

وخلف « سليمان القانوني » بعد وفاته سنة 974 هـ. = 1566 م، السلطان الحادي عشر « سليم الثاني » الذي هوجمت البلاد التونسية في مدته، من طرف قوات عثمانية، مرتين. كان الانتصار حليفها في المرة الثانية. وبذلك أصبحت البلاد التونسية « إيالة عثمانية » - حسبما تقدم إيضاحه.

وإثر وفاته سنة 982 هـ. = 1574 م، خلفه على التوالي ستة عشر سلطانا - آخرهم (عبد المجيد) الذي خلعه، (مصطفى كمال) سنة 1342 هـ. = 1924 م،. إثر إعلانه « الجمهورية » بالبلاد التركية - في 29 أكتوبر سنة 1923 -.

بتصرف عن « مفتاح التاريخ »
لمؤلفه المرحوم البشير صفر
وعن « تونس عبر التاريخ ».

الخاتمة

والان، وقد انتهيت - أيها المواطن - من مطالعة هذا السفر المتواضع، الذي أغناك عن البحث والتنقيب، وتعرفت من فحواه على مجتمع بلادك خلال ذلك العهد الذي دام 347 سنة هجرية، واستعرضت صورا شاملة ومجملّة عن حياته وآثاره في مختلف الميادين، فاني لا اشك في أنك أحسست باعتزاز قويّ بفضله أصالتك بوطنك، وأهيب بك أن تربط حاضرک بماضيک، وتستخلص العبر لما ينبغي أن يكون عليه مستقبل وطنک، وتندفع الى العمل المثمر الذي يرفع من شأنک وشأنه، شعارک « الصدق في القول والأخلاص في العمل »، ورائدک « أن وطننا يترقب من أبنائه الكثير ». ذلك هو الهدف السامي الذي قصده، وأملي وطيد في أن أكون قد أصبته، وفوق كل ذي علم عايم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المصادر

هي كثيرة نكتفي بذكر أهمها لتكون مرجعاً لمن أراد التوسع والزيادة :

- 1 - تونس عبر التاريخ أحمد بن عا—
- 2 - المؤنـس ابن أبي دينـار
- 3 - تونس العربية إحسان حقي
- 4 - رحلة التيجاني أبو محمد عبد الله التجاني
- 5 - التصوف الاسلامي محمد البهلي النبال
- 6 - تاريخ معالم التوحيد محمد بن الخوحة
- 7 - الجزء 1 و 2 من تاريخ أحمد بن أبي الضياف
- 8 - خلاصة تاريخ تونس حسن حسني عبد الوهاب
- 9 - شهرات التونسيات حسن حسني عبد الوهاب
- 10 - ورقـات 1 و 2 حسن حسني عبد الوهاب
- 11 - حضارة العرب غوستاف لوبـون
- 12 - مؤنس الأحبة في أخبار جربة محمد أبوراس الجربي
- 13 - مفتاح التاريخ البشير صفـر
- 14 - أعلام الفكر الاسلامي محمد الفاضل بن عاشور

كتب المؤلف

المطبوعة

- تونس عبر التاريخ
- مرجع تاريخي يبرز تاريخ تونس الخضراء كاملا من أقدام العصور الى العهد الجمهوري .
- التربية القومية
- مصدر يتضمن : تقسيم تونس الاداري - نظامها السياسي ، علاقاتها الأممية - علاقات المواطنين فيها بينهم .
- موجز تاريخ تونس
- مطابف في مادته لبرنامج السنة الخامسة الابتدائية .
- مبادئ النحو والصرف
- مطابق في مادته لبرنامج السنة الثالثة الابتدائية .
- دروس الدين والتربية
- « قرآن عبادات أخلاق » أربعة أجزاء .
- الدولة الصنهاجية
- صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية .
- الدولة الحفصية
- صفحات ذهبية من الحضارة التونسية

المعدة للطبع

* في ربوع الحرمين الشريفين

— رحلة تستعرض صورا عن الحرمين الشريفين، وتقدم

عمليا مناسك الحج والعمرة والزيارة النبوية.

* أضواء على المرأة التونسية

— صور عن حياتها عبر العصور.

* نظارات ومباحث

صفحات مجيدة من تراثنا الحضاري.

صور الكتاب

- 26 جامع القصبة بتونس
36 أثر فرع من الحنايا الحفصية
32 باب السنارة وقع تهديمه لتوسيع الطريق في ربيع
الثاني سنة 1379 - أكتوبر سنة 1959
64 أسطراب حفصي
84 أثر حصن حفصي بتونس
83 قبة زاوية الشيخ قاسم الجليزي
92 جانب من زاوية الشيخ أحمد بن عروس
102 جامع الأتراك بجزيرة جربة
118 أثر حصن إسباني بقلبيية
132 نقش حفصي نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم - صلى الله على سيدنا
محمد. كل نفس ذائقة الموت. هذا قبر الحرة الصالحة
الزهراء بنت الشيخ صالح أبو سعيد توفيت صباح يوم الاربعاء
السابع عشر للذي قعدة عام إحدى وثمانين وتسعمائة. غفر الله
لها ولوالديها، ولمن دعا لها بالرحمة. وللمسلمين أجمعين.

- 11 صورة ابن خلدون
12 زاوية الشيخ عامر المزروغي

محتويات الكتاب

صفحة

5	كلمة الناشر
7	المؤلف
9	الاهداء
11	المقدمة
17	الفصل - 1 - : الدولة الحفصية
21	الفصل - 2 - : النظام السياسي
27	الفصل - 3 - : العاصمة « تونس »
33	الفصل - 4 - : القضاء
37	الفصل - 5 - : الجيش
41	الفصل - 6 - : أشهر الامراء
65	الفصل - 7 - : الحياة الثقافية
73	الفصل - 8 - : الحياة الاجتماعية
85	الفصل - 9 - : المرأة
93	الفصل - 10 - : البريد والصحة والأمن

صفحة

97	الفصل - 11 - : الحياة الاقتصادية
103	الفصل - 12 - : الحياة الدينية
119	الفصل - 13 - : سياسة الحفصيين
123	الفصل - 14 - : ملاحق
125	1 - وصية أبى زكرياء يحيى
129	2 - مدينة تونس فى القرن - 15 -
131	3 - حراسة السواحل
133	4 - التجارة بتونس
136	5 - فدية الأسرى
138	6 - الاطعمة فى تونس
139	7 - أطعمة تونسية
141	8 - فنون الاندلس فى تونس
143	9 - ابن خلدون
145	10- ابن عرفة
147	11- خير الدين باربروس
150	12- الحروب الصليبية
163	13- الدولة التركية
166	الخاتمة
167	المصادر
186	كتب المؤلف
170	صور الكتاب

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة الاتحاد العام التونسي
للشغل في شهر اكتوبر 1974

2325 7

هذا الكتاب

- يساهم في نشر الثقافة وتعميم منافعها وتحقيق النمو الفكري ويساعد على ازدهار النهضة العلمية ويمكن من استخلاص العبر والمثل العليا .
- يعرف المواطنين بما من شأنه ان يزيدهم من معرفة وطنهم ويدل على مجده وفخره .
- يمددهم بصفحات ذهبية من تاريخ وطنهم حتى يضطلعوا بالزيادة من محبته والتضافر لرفع منزلته خاصة وهو يتطلع الى مستقبل مجيد وينشادهم التفاني في الاجتهاد ويدعوهم الى اقتفاء أثر الاجداد الامجاد .